أعلام الإسلام

مصطفى عبد الرازق

الإمام الشافعي



لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

اعلام الاسلام

الإمام الشافعي

مصطفى عبد الرازق باشا

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

الشافعي واضع أصول علم الفقه

الشافعي هو أحد الأئمة الأربعة الفقهاء: أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي المتوفى سنة « ١٥٠ هـ - ٧٦٧ م »؛ وأبي عبد الله مالك بن أنس الأصبحي المدني المتوفى سنة « ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م »، وأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المكي المتوفى سنة «٢٠٤هـ - ٨٢٠م»؛ وأبي عبد الله أحمد ابن حنبل البغدادي المتوفى سنة « ٢٤١ هـ - ٨٥٥ م ».

وهؤلاء الأئمة هم الذين استقرت مذاهبهم في الفقه الإسلامي بين جمهور المسلمين منذ نحو ألف عام، وتلاشى ما عداها من المذاهب كمذهب « الحسن البصري » المتوفى سنة « ١٦١ هـ - ٧٧٧ م »، ومذهب « سفيان الثوري » المتوفى سنة «١٦١ م - ٧٧٧ م »، ومذهب «عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي» المتوفى سنة « ٢٤هـ - ٨٥٤ م »، ومذهب « محمد بن جرير الطبري » المتوفى سنة « ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م ».

وطالت مدة المذهب الظاهري الذى أسسه «داود بن على الأصفهانى» المتوفى سنة «٢٧٠ - ٨٨٣م» وزاحم المذاهب الأربعة ، ودرس بعد القرن الثامن .

والتنافس بين المذاهب الأربعة على الغلبة والانتشار والسلطان قديم يرجع إلى عهودها الأولى ، ولعل بعض آثاره لا تزال باقية إلى اليوم .

ولئن كان هذا التنافس قد أدى فى بعض الأحايين إلى إثارة أحقاد وفتن بين العامة، فإنه فى أكثر أمره كان سبب حياة عقلية، ونشاط فكرى، وتسابق إلى الإتقان والكمال فى البحث العلمى .

فإن أهل كل مذهب كانوا لا يفتؤون يتفننون فى جعل مذهبهم ميسراً لأفهام النـــاس وأذواقهم ، متسعا لما يتجدد من حاجتهم ، متميزا بلطف الاستنباط وحسن التخريج ، وكثرة الجمع للمسائل ، وجودة التأليف، حتى أصبحت علوم الأحكام الشرعية أكمل مظهر للمجهود العقلى العظيم فى الإسلام بوفرة أبحاثها ومؤلفاتها التى لا يحصى عديدها، وبما فى كثير من هذه المؤلفات والأبحاث من ابتكار وإبداع .

لا جرم كان التراث الفقهى الإسلامى من أنفس ما ادخر البشر من مباحث المتفقهين .

ولا نزاع فى أن لأشخاص واضعى المذاهب أثرا فى رواج مذاهبهم

وإقبال الناس عليها، وتغلبها على ما عداها.

وقلما تمتاز عند الجمهور مقالات المفكرين عن صورهم وأشخاصهم[(١)].

ومن أجل هذا كان من وسائل أهل المذاهب الأربعة لنشر مذاهبهم والدعوة لها: وضع المصنفات فى مناقب الأئمة أصحاب هذه المذاهب، وفى الترجمة لحياتهم على وجه يبرز فضائلهم، ويبين مزايا مذاهبهم.

وقد تفرد الأئمة الأربعة بكثرة ما دون من المؤلفات فى تراجمهم حتى ليقول «أبو زكريا النواوى» المتوفى سنة «٦٧٦ هـ — ١٢٧٧ م» فى شرحه للمهذب المسمى بالمجموع: «وقد أكثر العلماء من المصنفات فى مناقب الشافعى رحمه الله وأحواله من المتقدمين كداود الظاهرى وآخرين، ومن المتأخرين كالبيهقى وخلائق لا يحصون».

---

(١) نقل ابن حجر عن زكريا الساجى، أنه سمع هارون بن سعيد الأيلى يقول: ما رأيت مثل الشافعى، قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قريش فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجها، فلما تكلم مارأينا أحسن كلاما منه، فافتتنا به. ص ٥٩.

وأخرج الآبرى من طريق الربيع قال: لما قدم الشافعى مصر وقعد فى مجلسه كان يجالسه رؤساء أصحاب الحلق: عبد الله بن عبد الله بن عبد الحكم ونظراؤه، وكان الشافعى حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان. ص ٦٢.

ويقول أبو حفص عمر بن أبي الحسن الشافعي المعروف بابن الملقن في كتابه « العقد المذهب في تاريخ المذهب » المؤلف في القرن الثامن الهجري : « وترجمة الشافعي حذفناها في هذا المؤلف لأنها أفردت تأليفا فبلغت نحو أربعين مؤلفا » .

على أن كثرة هذه المؤلفات وإن وفرت للمؤرخ مراجع البحث فإنها تقوم في الغالب على العصبية لإمام على إمام ، فلا تخلو من سرف في المدح وسرف في الذم ، وجدل فيما ينسب لهذا من المناقب وما ينسب لهذا من الهنات ، ولا تخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان ، وعلى الأحلام والرؤى .

ومن أمثلة ذلك : ما ورد في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان لمحمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردي صاحب الفتاوى البزازية المتوفى سنة « ٨٢٨هـ — ١٤٢٣ م » من عقد فصل لصفة الإمام في التوراة .

وقلما تجد كتابا في مناقب الأئمة إلا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له في المنام وما رئي له .

نعم لكل ذلك وزنه ودلالته في نظر الباحث ، لكن التقصي لهذه المقالات في مصادرها ، والمقارنة بين رواياتها المختلفة ، واعتبار حجج المثبتين لها والمرتابين — مما لا يدخل في عرضنا ولا يتسع له المقام .

غرضنا من هذا البحث أن ندرس ما يتعلق بأثر الشافعى فى تكوين العلم الإسلامى .

ولما كان وصف الأثر العلمى للامام يستدعى تصوير شخصيته التى صدر عنها هذا الأثر ، فإنى أجمل هذا البحث قسمين :

ا — ما يتعلق بالشافعى فى خاصة نفسه من نشأته وسيرته .

ب— ما يتعلق بأثر الشافعى فى وضع علم « أصول الفقه » .

وأتناولها على هذا الترتيب .

نشأة الشافعي وسيرته

يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى المالكي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ في كتابه « الانتقاء ، في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء : مالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة رضى الله عنهم » : لا خلاف علمته بين أهل العلم والمعرفة بأيام الناس من أهل السير والعلم بالخبر والمعرفة بأنساب قريش وغيرها من العرب ، وأهل الحديث والفقه ، أن الفقيه الشافعي رضى الله عنه هو محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة . ويجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف بن قصى ، والنبي صلى الله عليه وسلم « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف » .

والشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، وإلى شافع ينسب ، وقد تقدم أنه شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم

ابن المطلب بن عبد مناف بن قصى .

فالنبى صلى الله عليه وسلم هاشمى ، والشافعى مطلبى ، وهاشم والمطلب أخوان ابنا عبد مناف ، ولعبد مناف أربعة بنون : هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس — (ص ٩٦). وهذا الذى لم يكن يعرف فيه ابن عبد البر خلافاً من نسب الشافعى قد حدث فيه الخلاف .

قال فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ — ١٢٠٩ م فى كتابه فى مناقب الإمام الشافعى :

«وطعن الجرجانى، وهو واحد من فقهاء الحنفية، فى هذا النسب، وقال : إن أصحاب مالك لا يسلمون أن نسب الشافعى رضى الله تعالى عنه من قريش ، بل يزعمون أن شافعاً كان مولى لأبى لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش فامتنع ، فطلب من عثمان ذلك ففعل ، فعلى هذا التقدير يكون الشافعى رضى الله تعالى عنه من الموالى لا من قريش» . ص ٥ .

وعرض الرازى للرد على هذه الدعوى بما لا نرى حاجة للإطالة فيه، مادام صاحب الطعن يعزوه إلى أصحاب مالك ، وقد نقلنا عن إمام من أئمة المالكية ما ينقض هذه الدعوى التى يقول فى أمرها الرازى : « واعلم أن الجرجانى إنما أقدم على هذا البهتان لأن الناس اتفقوا على أن أبا حنيفة كان من الموالى، إلا أنهم اختلفوا فى أنه كان من موالى العتاقة أو من موالى الحلف والنصرة ،

وطال كلامهم فى هذا الباب. وأراد أن يقابل ذلك بمثل هذا البهت، وما مثله فيه إلا كما قال الله تعالى «يُرِيدونَ لِيُطفِئُوا نُورَ اللهِ بأفْواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكافِرُونَ». ص٧ و ٨.

وقد يكون أصل هذه الحكاية ما ذكره الخطيب البغدادى فى ترجمته للشافعى، من أنّ أم شافع أم ولد.

فالشافعى من جهة أبيه قرشىّ مطلبىّ، ليس فى ذلك نزاع يقام له وزن، وإن كانت أم جده ليست من العرب.

وقد ذكر الكثيرون ممن ترجم للشافعى: أن جده السائب أسلم يوم بدر، وكان صاحب راية بنى هاشم مع المشركين، فأسر ففدى نفسه وأسلم. وروى أنه اشتكى فقال عمر: اذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد فإنه من قريش. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: حين أتى به وبعمه العباس: «هذا أخى».

أما ابنه شافع فلقى النبى وهو مترعرع.

فالسائب بن عبيد صحابى، وابنه شافع صحابى، وأخوه عبد الله بن السائب والى مكة صحابى.

وروى ابن حجر العسقلانى الشافعى المتوفى سنة «٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م» فى كتابه «الإصابة فى تمييز الصحابة» عند الكلام على عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب، روايات قال على أثرها:

« وعلى هذا فيكون فى النسب أربعة أنفس فى نسق من الصحابة : عبد يزيد، وولده عبيد ، وولده السائب بن عبيد ، وولده شافع بن السائب». ج ٨ ص ١٩٣ .

ويظهر أن بيت الشافعى كان بيت حكم وعلم فى مكة . فقد رأينا أن عبد الله بن السائب أخا شافع بن السائب كان واليا لمكة .

وقال ابن حجر العسقلانى فى كتابه « توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس » : «وأما عثمان بن شافع فعاش إلى خلافة أبى العباس السفاح . وله ذكر فى قصة بنى المطلب لما أراد السفاح إخراجهم من الخمس وإفراده لبنى هاشم ، فقام عثمان فى ذلك حتى رده على ما كان عليه فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم» . ص ٤٥ :

وذكر ابن عبد البر ، فيمن أخذ عن الشافعى علمه من أهل مكة ، أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع ، قال : « وهو ابن عمه ، وروى أيضاً عن ابن عيينة وغيره، وكان ثقة حافظا للحديث ولم ينتشر عنه كبير شىء فى الفقه ، وكان منشؤه بمكة، وتوفى بها سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وحدث عن جماعة » . ص ١٠٤ .

ولسنا نعرف من أمر إدريس والد الشافعى إلا أنه كان رجلا حجازيا قليل ذات اليد ، وأنه خرج مهاجرا من المدينة حين ظهر فيها بعض

ما يكرهه ، أو خرج من مكة إلى الشام لحاجة ، فى رواية أخرى ، وأقام بغزة أو بعسقلان من بلاد فلسطين ، ثم مات بعد مولد الشافعى بقليل .

أما أم الشافعى فهى أزدية فى أرجح الروايات ، وهى الرواية المشهورة المعزوة إلى الإمام نفسه . وذكر بعض المؤرخين أن كنيتها « أم حبيبة الأزدية » .

ونقل بعض أصحاب التراجم أن أم الشافعى هى فاطمة بنت عبد الله ابن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب .

وقيل : فاطمة بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن على .

وقالوا : إنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبى طالب والشافعى .

ورجح هذا القول ابن السبكى فى كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » . لكن الفخر الرازى يرى : أن هذا القول شاذ . ويقول ابن حجر العسقلانى : إنه لم يثبت ، ويرده كلام الشافعى نفسه . قال ابن السبكى : « ولله درها ، من أى قبيلة كانت ! » .

قال ابن حجر : « ومن ظريف ما يحكى عن أم الشافعى من الحذق ، أنها شهدت عند قاضى مكة هى وأخرى مع رجل ، فأراد القاضى أن يفرق بين المرأتين ، فقالت له أم الشافعى : ليس لك ذلك ؛ لأن الله سبحانه وتعالى

يقول : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ . فرجع القاضى لها فى ذلك . وهذا تفريع غريب واستنباط قوى » .

ولو أن أم الشافعى كانت بهذه المثابة من دقة التفريع وقوة الاستنباط لعرف التاريخ على الأقل اسمها، وعرف أين وافاها حمامها وفى أى زمن[1] .

هذه السيدة التى يختلفون فى نسبها ويختلفون فى اسمها هى التى كفلت طفلها يتيما غريبا فقيرا ، ولم تزل ترعاه بعنايتها وتتولاه بهديها حتى أصبح بين المسلمين إماماً .

خرج إدريس بن العباس والد الشافعى من مكة مهاجرا ، يفر من الظلم ، أو يفر من الفقر ، أو يفر من كليهما ، وقد يكون فى طريقه إلى فلسطين أقام فى المدينة زمنا ، فقال بعض الرواة : إن هجرته كانت من المدينة ثم نزل فى غزة أو فى عسقلان ـ وهما ثغران من ثغور فلسطين متجاوران ، وعسقلان هى المدينة ـ وأقام هناك مع زوجه التى وضعت له طفلا ذكرا لم يكد يتنسم الحياة حتى أدرك الموت أباه .

(١) فى كتاب « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » تأليف شمس الدين محمد بن الزيات : « ويقولون (عن قبر من القبور) به أم الإمام الشافعى وليس بصحيح فإنها بمكة . قال المؤلف عفا الله عنه : دفنت فاطمة أم الأمام الشافعى بمكة . وهو الأصح » .

هذا مولد الشافعي ، ولا خلاف بين الرواة فى أن الشافعى ولد « سنة ١٥٠ هـ » ، وهى السنة التى مات فيها أبوحنيفة على الصحيح ، كما ذكر ابن حجر وغيره[1]

والمروى عن الشافعى : أنه قال : إنه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، من غزة أو عسقلان .

وفى كتاب « معجم الأدباء » لياقوت : «وفى رواية أن الشافعى قال : ولدت باليمن فخافت أمى علىّ الضيعة ، فحملتنى إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك . وتأويل بعضهم قوله « باليمن » بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن ، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها .

قلت : وهذا عندى تأويل حسن إن صحت الرواية ، وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع» . ج ٦ ص ٣٦٨ .

ويقول ابن حجر فى «توالى التأسيس» ص ٤٩ : «والذى يجمع الأقوال

---

(١) وفى كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان لأبى محمد عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين اليافعى الشافعى اليمنى ثم المكى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ :

« وقلت : وبيننا وبين الحنفية مقاولة على سبيل المزاح ، فهم يقولون : إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا ، ونحن نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم » . ج ٢ ص ٢٥ . وهكذا يمزح المتفقهون .

أنه ولد بغزة عسقلان ، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن ، لأنها كانت أزدية ، فنزلت عندهم ، فلما بلغ عشراً خافت على نسبه الشريف أن يُنسى ويضيع ، فحوّلته إلى مكة » .

وليس من رأيي التوفيق بين الروايات المتضاربة قويّها وضعيفها على هذا الوجه ، فتلك طريقة ليست من التمحيص التاريخي في شيء ، بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند، التي يرجّحها ما يحفّ بها من القرائن . والذي تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعيّ ولد بغزة ومات فيها أبوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبي عليه السلام ، ثم حملته أمه إلى عسقلان وهي من غزة على فرسخين أو أقل . وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها وكان يقال لها : « عروس الشام » . وفي كتاب « أحسن التقاسيم » للمقدسي المعروف بالبشاري : « أن خيرها دافق ، والعيش بها رافق » . .

وكل هذه الاعتبارات جديرة بأن تجعل الأيِّم الفقيرة تختارها سكنا لها ولطفلها اليتيم الغريب .

فلما بلغ الطفل سنتين وترعرع وأصبح يحتمل السفر حملته أمه إلى مكة ؛ لينشأ بين قومه من قريش ، ولعلها كانت تريد أن تستعين على

تكاليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوى القربى ، باعتباره مطلبيا [1] .

---

(١) ويظهر أن أم الشافعى كانت ترى أن تنشئه على الاعتزاز بنسبه والشعور بقوميته ، وقد نشأ الشافعى غير خاو من هذه النزعة حتى لقد اتهم بالتشيع . ويقول صاحب الفهرست : وكان الشافعى شديداً فى التشيع ، وذكر له رجل مسألة فأجاب فيها ، فقال له : خالفت على بن أبى طالب (رض) فقال له : أثبت لى هـذا عن على بن أبى طالب حتى أضع خدى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله . وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين فقـال : لا أتكلم فى مجلس بحضرة أحدهم وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل . ص ٢٧٩ .

وذكر ابن حجر فى رواية أن الشافعى كان يقول : على بن أبى طالب ابن عمى وابن خالتى . فأشار الشافعى بذلك إلى أن أم جده الأعلى السائب بن عبيد « الشفاء » بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف ، وأمها « خلدة » بنت أسد بن هاشم أخت « فاطمة » بنت أسد والدة على . ففاطمة أم على بن أبى طالب خالة إحدى جدات الشافعى ، فأطلق عليها خالته مجازاً . (ص ٤٦) .

وفى كتاب الانتقاء لابن عبد البر : «قيل للشافعى: إن فيك بعض التشيع . قال : وكيف ؟ قالوا : ذلك لأنك تظهر حب آل محمد . فقال : يا قوم ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وقال : « إن أوليائى من عترتى المتقون » فإذا كان واجبا على أن أحب قرابتى وذوى رحمى إذا كانوا من المتقين . أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقين . لأنه كان يحب قرابته وابنه . وله أبيات منها :

على أن حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليرفه من عيشه فنشأ فى قلة من العيش، وضيق حال. قال الرازى :

« وذكروا أن الشافعى رضى الله عنه كان فى أول الزمان فقيرا ، ولما سلموه إلى المكتب ما كانوا يجدون أجرة المعلم ، وكان المعلم يقصر فى التعليم إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعى رضى الله عنه يتلقف ذلك الكلام ، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى رضى الله عنه يعلم الصبيان تلك الأشياء ، فنظر المعلم فرأى الشافعى رضى الله عنه يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التى يطمع بها منه ، فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم القرآن كله لسبع سنين ـ ص ١٥ و ١٦ »[1]

(إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى) ص ٩١

ونقل الرازى : أن رجلا قال لابن حنبل : يا أبا عبد الله إن يحى بن معين وأبا عبيدة ينسبان الشافعى إلى التشيع. فقال أحمد : لا أدرى ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيرا . ثم قال لمن حوله : اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله تعالى شيئا وحرم قرناءه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه، و بئست هذه الخصلة فى أهل العلم : ص ٣٤ .

و إذا صح أن الشافعى كان لا يخلو من تشيع فهو لم يكن مسرفا ولا متعصبا، وليس أدل على ذلك من أن زوجه كانت عثمانية .

(١) وقد كان الشافعى يجيد حفظ القرآن ويكثر من تلاوته وتدبره ،

ويروى عن الشافعي : أنه كان يحدث عن طفولتـه فيقول : « وكانت نهمتى فى شيئين ، فى الرمى ، وطلب العـلم فنلت من الرمى حتى كنت أصيب من عشره عشرة» وفى روايه من عسرة تسعة . وسكت عن العلم ، فقال له بعض من كان يستمع إليـه : أنت والله فى العـلم أكثر منك فى الرمى .

وروى عن الربيع أن الشافعي كان يختم القرآن فى كل شهر ثلاثين ختمة ، وفى شهر رمضان ستين ختمة . ختمة بالليل ، وختمة بالنهار . الرازى ص ١٢٤

ويروى أنه كان يقرئ النـاس فى المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنه ، وكان حسن الصوت فى القراءة ، وأخرج ابن عدى من طريق أحمد بن صالح قال : كان الشافعى إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته. وأخرج الحاكم من طريق بحر بن نصر قال كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا : اذهبوا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن ، فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى تساقط الناس بين يديه ويكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته فإذا رأى ذلك أمسك

وكان واسع العلم بالتفسير حتى قال يونس بن عبد الأعلى : كان الشافعى إذا أخذ فى التفسير كأنه شاهد التنزيل ، وكان الشافعى يقول : نظرت بين دفتى المصحف فعرفت مراد الله تعالى من جميع ما فيه إلا حرفين أشكلا على ، قال الراوى : الأول نسيته ، والثانى قوله تعالى : «وقد خاب من دساها» قال: فإنى لم أجده فى لغة العرب ثم قرأت لمقاتل بن سلمان قال : إنه لغة السودان فإن «دساها» أغواها الرازى ص ١٢٤ ، ١٢٥ وابن حجر ص ٦٠ .

ويروى عنه أيضا : أنه قال : كنت ألزم الرمى حتى كان الطبيب يقول لى : « أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك فى الحر » . تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٥٩ ، ٦٠

ويظهر : أن حب الرماية لم ينزعه من بين جوانب الشافعى جلال السن وجلال الإمامة .

« عن المزنى قال : كنت عند الشافعى فر بهدف ، فإذا رجل يرمى بقوس عربية ، فوقف عليه الشافعى وكان حسن الرمى فأصاب سهاما ، فقال له الشافعى : أحسنت . وبرّك عليه . قال لى : ما معك ؟ فقلت : ثلاثة دنانير ، فقال : « أعطه إياها واعذرنى إذ لم يحضرنى غيرها » . توالى التأسيس — ص ٦٧[1]

(١) ويظهر أن الشافعى كان يعرف جياد الخيل ، ولعله كان من فرسانها وفى كتاب « مفتاح السعادة » لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ :

« روى عن الشافعى أنه قال : رأيت على باب مالك كراعا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه ، فقلت له : ما أحسنه ! فقال : هو هدية منى إليك يا أبا عبد الله . قلت : دع لنفسك منها دابة تركبها . فقال : أنا أستحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، ولم ير مالك راكبا بالمدينة قط . ج ٢ ص ٨٧ .

وكان الشافعى متأثرا فى خلقه وفى خليقته بالرياضة البدنية التى شغف بها منذ

قال الشافعى : « لما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء وأحفظ

الصغر ، فكان جسمه جسم الرياضيين ، وكان خلقه خلق الرياضيين . ذكر زين الدين عمر بن الوردى أن ابن صلاح ، نعت الشافعى لبعض ملوك الشام فقال : كان، رضى الله عنه وجزاه الخير، طويلا سائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق، طويل القصب، أسمر خفيف العارضين، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت حسن السمت، عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق، مهيبا فصيحا من أذرب الناس لسانا، إذا أخرج لسانه بلغ أنفه . ج ١ ص ٢١٥ .

ويظهر أن الشافعى كان لا يحب السمن ولا يحسن ظنه فى أهله . ويروى : أنه كان يقول . ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن . وتلك مقالة رجل رياضى .

ومن أخلاق الرياضيين العزة والاحتمال والقصد والبر والصيانة .

وقد كان الشافعى عزيزا صبورا مقتصدا خيرا .

وروى عن الربيع أنه قال : قال عبد الله بن الحكم للشافعى: إذا أردت أن تسكن البلد ، يعنى مصر ، فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به . فقال له الشافعى :يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له ، وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة وما بتنا جياعا قط .

ومما يتصل بذلك ما روى أن الربيع سئل : كيف كان لباس الشافعى؟قال: كان مقتصدا فيه . يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن البغدادى ، وكان ربما لبس قلنسوة ليست مسرفة جدا ، ويلبس كثيرا العمامة والخف ، وكان لا يأتى عليه يوم لا يتصدق ، ويتصدق بالليل ولا سيما فى رمضان،ويتفقد الفقراء والضعفاء . ابن حجر ص ٦٧ ، ٦٨ .

وكان شيوخ مكة يصفون الشافعى من أول صغره بالذكاء والعقل والصيانة ، ويقولون: لم نعرف له صبوة . كتاب مرآة الجنان ج ٢ ص ٢١ .

الحديث والمسألة ، وكان منزلنا بمكة فى شعب الخيف ، وكنت فقيرا بحيث ما أملك ما أشترى به القراطيس ، فكنت آخذ العظم أكتب فيه، وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها » الرازي — ص ١٦

وكان الشافعى فى أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب . قال الشافعى : « وخرجت من مكة — يعنى بعد أن بلغ — قال : فلزمت هذيلا بالبادية أتعلّم كلامها وآخذ اللغة . وكانت أفصح العرب[1] ». ابن حجر ص ٥٠

---

(١) ويقول الرازى : اعلم أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم ، اعترفوا للشافعى بالتقدم فى علم اللغة. وأقروا له بكمال الفصاحة . نقل عن الأصمعى أنه قال : قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له « محمد بن إدريس الشافعى »

وحكى ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى أنه قال : قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس. ثم نقل الرازى شهادة المازنى والجاحظ وثعلب وأبى منصور الأزهرى وأبى سليمان الخطابى ونفطويه والزمخشرى للشافعى وقال بعد أن نقل كلام الزمخشرى فى الكشاف ، الذى يرجح به رأى الشافعى فى تفسير بعض الآيات : مانصه :

هذا كلام صاحب الكشاف ، فقلته بلفظه . وهو صريح بأن نظر الشافعى (رض) فى هذه الآية أتم ، ووقوفه على العربية أكمل . مع أن صاحب

ثم توجه الشافعي إلى الفقه يدرسه . وقد احتلفت الروايات في سبب

الكشاف كان على مذهب أبي حنيفة ، فكانت شهادته للشافعي بالتقدم في هذا العلم دليلا على أن الأمر كذلك . الرازي ، ص ١٥٣ إلى ١٥٦

وفي معجم الأدباء لياقوت نقلا عن الآبري ، قال : وسمعت ابن هشام يقول : الشافعي كلامه لغة يحتج به . وحدثت عن محمد بن الحسن الزعفراني قال : كان قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي معنا ، ويجلسون ناحية قال : فقلت لرجل من رؤسائهم : إنكم لا تتعاطون العلم فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعي ....

وحدث ابن خزيمة قال : سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول : كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الفقه قلت : هو بهذا أعلم . ج ٦ ص ٢٧٩ و ٣٨٠

وذكر البغدادي في تاريخ بغداد عن أبي الوليد بن أبي الجارود أنه كان يقول : ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكثر من مشاهدته إلا الشافعي ، فإن لسانه كان أكثر من كتابه . ج ٢ ص ٦٧

وقد رووا للشافعي أشعاراً يكفي في الحكم عليها أن نذكر ما ذكره الرازي من أن الشافعي كان يقول :

لا يكاد يجود شعر القرشيين ؛ لأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ولا يكاد يجود خط القرشي ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يكتب بدليل قوله تعالى ﴿ ولا تخطه بيمينك ﴾ . ص ١٩٥ على أنه يقع للشافعي فيما روي له من الشعر ما يكون جيداً كقوله :

توجهه إلى الفقه ، وتكاد ترجع كلها إلى نصح الناصحين له : أن يصرف جهده وذكاءه فى علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه. ولم يكن يومئذ إلا الفقه سبيلا إلى ذلك .

ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية ما رواه الخطيب البغدادى فى تاريخه عن أبى يوسف قال : قال أبو حنيفة : لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها ، فقيل لى : تعلم القرآن . فقلت : إذا تعلمت القرآن وحفظته فما يكون آخره ؟ قالوا : تجلس فى المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ، ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك فى الحفظ ، فتذهب رياستك . قلت : فإن سمعت الحديث وكتبته

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وقوله :

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

وقوله :

لا تأس فى الدنيا على فائت وعندك الإسلام والعافيه

وقوله :

وأحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيق

وقوله :

أكل العقاب بقوة جيف الفلا وجنى الذباب الشهد وهوضعيف

حتّى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى ؟ قالوا : إذا كبرت وضُعفت حدّثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان ، ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالـكذب ، فيصير عاراً عليك فى عَقِبك . فقلت : لاحاجة لى فى هذا . ثم قلت : أتعلم النحو . فقلت : إذا تعلمت النحو والعربية ما يكون آخر أمرى ؟ قالوا : تقعد معلّماً وأكثر رزقِكَ ديناران إلى الثلاثة. قلت وهذا لاعاقبة له . قلت : فإنْ نظرت فى الشعر فلم يكن أحدٌ أشعر منى ، ما يكون من أمرى ؟ قالوا : تمدح هذا فيهب لك ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعـة ، وإنْ حرمك هجوته فصرت تقذف المحصنات . فقلت : لاحاجة لى فى هذا . قلت : فإن نظرت فى الكلام فما يكون آخره ؟ قالوا : لا يسلم من نظر فى الـكلام من شنعات الـكلام فيرمى بالزندقة ، فإما أن يؤخذ فيقتل ، وإما أن يسلم فيكون مذموما . قلت : فإن تعلمتُ الفقه ؟ قالوا : تسأل وتفتى الناس وتُطلَب للقضاء وإن كنت شابا . قلت : ليس فى العلوم شىء أنفع من هـذا ، فلزمت الفقه وتعلّمته . تبييض الصحيفة ص ١١ و١٢ .

وتفقّه الشافعى أول أمره على « مسلم بن خالد الزنجى » مفتى مكة سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م مولى بنى مخزوم . وقد اختلف النقاد فى أمر مسـلم فقيل : ثقة ، وقيل : ضعيف ، وقيل : ليس بشىء ، وقال البخارى : منكر الحديث. ونقل أنه كان يرى القدر . ولعل هذا هو سر تضعيفه .

ويقولون : إن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي : أفت يا أبا عبد الله فقد آن لك أن تفتي ! وكان الشافعي حينئذ دون عشرين سنة .

وأخذ الشافعي في مكة عن : « سفيان بن عيينة الهلالي » المتوفى سنة ١٩٨ هـ ٨١٣ م أحد الثقات الأعلام ، وروى عن بعضهم : أنه اختلط سنة ١٩٧ هـ ٨١٢ م .

ثم رحل الشافعي إلى المدينة ليطلب العلم على « مالك بن أنس » فقرأ الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة، وأقام بالمدينة إلى أن توفي « مالك » سنة ١٧٩ هـ ٧٩٥ م .

وخبر رحلته إلى مالك مروي على وجوه مختلفة ، تتفق كلها في أن الشافعي كان فقيرا لا يملك نفقة السفر على فرط شوقه إلى الأخذ عن إمام دار الهجرة .

ثم يسّر الله له أسباب الرحلة ، وأحسن مالك لقاءه لما تفرّس من نجابته وفضله .

وتلقى الشافعي في المدينة عن غير مالك كإبراهيم بن أبي يحيى الذي يقول الرازي : اتفقوا على أنه كان معتزليا .

وخرج الشافعي إلى اليمن بعد موت مالك .

« قال الشافعي : لما مات مالك كنت فقيرا ، فاتفق أنّ والي اليمن قدم

المدينة فكلّمه ببعض القرشيّين فى أن أصحبه ، فذهبت معه واستعملنى فى أعمال كثيرة ، وحمدت فيها ، والناس أثنوا علىّ » . الرازى ص ١٨

وكادت الولاية تشغل الشافعى عن العلم حتى نبهه بعضُ شيوخه فانتبه .

قال الشافعى : كنت على عمل باليمن ، واجتهدت فى الخير والبعد عن الشر ، ثم قدمت إلى المدينة فلقيت ابن أبى يحيى وكنت أجالسه ، فقال لى : تجالسوننا وتسمعون منا ، فاذا ظهر لأحدكم شىء دخل فيه .

ثم لقيت ابن عيينة فقال : قد بلغنا ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك ، وأدّيت كل الذى لله عليك ، ولا تعد .

قال الشافعى رضى الله عنه : موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبى يحيى ـ الرازى ص ٢٠ .

وقد أخذ الشافعى عن جماعة من أهل اليمن منهم مطرف بن مازن الصنعانى المتوفى سنة ١٩١ هـ ـ ٨٠٦ م . وقد كذبه يحيى بن معين ، وقال النسائى : ليس بثقة . وقال غيره كان قاضى صنعاء وكان رجلا صالحا

وعمرو بن أبى سلمة المتوفى سنة ٢١٤ هـ ـ ٨٢٩ م وهو صاحب الأوزاعى .

ويقولون : إن الشافعى جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها .

ارتفع شأن الشافعي في اليمن، « ثم إن الحساد سعوا به إلى هارون الرشيد، وكان باليمن واحد من قواده فكتب إليه يخوفه من العلويين، وذكر في كتابه : أن معهم رجلا يقال له محمد بن إدريس الشافعي يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيف، فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك .

فبعث الرشيد إلى اليمن ، وحملوا الشافعي مع العلوية إلى العراق » . الرازي ص ١٨

وتلك هي المحنة التي اقتضت دخول الشافعي العراق . وفي حديث هذه المحنة اختلاف كبير وقد يكون أسلم هذه الروايات من الحشو وأدناها إلى الاعتدال والقصد ، ما رواه ابن عبد البر في كتاب « الانتقاء » قال :

« حمل الشافعي من الحجاز ، مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر ، إلى بغداد ، وكان الرشيد بالرقة ، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه : « محمد بن الحسن الشيباني » وكان صديقا للشافعي، وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه[1]، فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعي عليه ، اغتم لذلك غما شديدا ؛ وراعى وقت دخولهم على الرشيد . قال : فلما أدخلوا على الرشيد

(١) لعل في العبارة تحريفا فإن المعروف أن الشافعي هو الذي أخذ عن محمد.

سألهم وأمر بضرب أعناقهم . فضربت أعناقهم إلى أن بقى حدَثٌ علويّ من أهل المدينة ، وأنا ، فقال للعلوى أأنتَ الخارج علينا والزاعم أنى لا أصلح للخلافة ؟ فقال العلويّ: لن أدّعىَ ذلك أو أقوله . قال : فأمر بضرب عنقه ، فقال العلوى : إن كان لابدّ من قتـلى فأنظِرْنى أكتب إلى أمى بالمدينة ، فهى عجوز لم تعلم بخبرى . فأمر بقتله فقتل .

ثم قدمتُ ومحمد بن الحسن جالس معه، فقال لى مثل ماقال للفتى، فقلت: يا أمير المؤمنين لستُ بطالبيّ ولا علَويّ ، وإنما أدخلت فى القوم بغياً علىّ ، وإنما أنا رجل من بنى المطلب بن عبد مناف بن قصى ، ولى مع ذلك حظّ من العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ، وأنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . فقال لى : أنت محمد بن إدريس ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ما ذِكرُكَ لى محمد بنَ الحسن ؟ ثم عطف على محمد بن الحسن فقال : يامحمد ، ما يقول هذا هو كما يقوله ؟ قال : بلىٰ، وله من العلم محل كبير ،وليس الذى رفع عليه من شأنه . قال : فخذه إليك حتى أنظر فى أمره . فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لما أراد الله عز وجل منه . ص ـ ٩٧ ، ٩٨

ويقول ابن حجر فى كتاب «توالى التأسيس» ص ـ ٧١ : « وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعى ، المروية من طريق عبد الله بن محمد البلوى فقد أخرجها

الآبرى ، والبيهقىّ ، وغيرهما مطولة ومختصرة ، وساقها الفخر الرازى فى مناقب الشافعى بغير إسناد معتمداً عليها ، وهى مكذوبة ، وغالب ما فيها موضوع ، وبعضها ملفق من روايات ملفقة ، وأوضح ما فيها من الكذب ، قوله فيها : إن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرَّضا الرشيد على قتل الشافعى ، وهذا باطل من وجهين : أحدهما — أن أبا يوسف لما دخل الشافعى بغداد وكان مات لم يجتمع به الشافعى .

والثانى — أنهما كانا أتقى لله من أن يسعيا فى قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم ؛ وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم . هـذا ما لا يُظنّ بهما ، وإن منصبهما وجلالتهما ، وما اشتهر من دينهما ليصدّ عن ذلك .

والذى تحرَّر لنا بالطرق الصحيحة : أن قدوم الشافعى بغداد أول ماقدم كان سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م . وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين ، وأنه لقى محمد بن الحسن فى تلك القدمة ، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه .

وممن أخذ عنهم الشافعى فى العراق «وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى أبو سفيان الكوفى الحافظ» المتوفى سنة ١٩٠ هـ ٨٠٥ — ٨٠٦م ، و«حماد بن أسامة الهاشمى الكوفى» المتوفى سنة ٢١٠ هـ — ٨٢٥ م ، و« عبد الوهاب ابن عبد المجيد البصرى » المتوفى سـنة ١٩٤ هـ ٨٠٩ — ٨١٠ م . وقد قرأ

الشافعي كتب «محمد بن الحسن الشيباني» المتوفى سنة ١٨٩ هـ ٨٠٤–٨٠٥م ولازمه وأخذ عنه

ولم نر فيما بين أيدينا من تراجم الشافعي ذكر مدة مقامه في بغداد في هذه القدمة .

وقدم الشافعي بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ ٨١٠ — ٨١١ م فأقام سنتين واشتهرت جلالة الشافعي رحمه الله في العراق وسار ذكره في الآفاق وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون ... وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والأخيار من أهل الحديث والفقه وغيرهما ، ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه ، وتمسكوا بطريقته ، كأبي ثور وخلائق لا يحصون ... وصنّف في العراق كتابه القديم ، ويسمى « كتاب الحجة » ويرويه عنه أربعة من جلّة أصحابه وهم : أحمد بن حنبل ، وأبو ثور ، والزعفراني ، والكرابيسي » . شرح المهذب للنووي ج ١ ص ٩.

ثم خرج الشافعي إلى مكة وعاد إلى بغداد في سنة ١٩٨هـ ٨١٣–٨١٤م وأقام بها أشهراً ، ثم إنه خرج إلى مصر في هذه السنة كما في معجم الأدباء ويقول ياقوت في موضع آخر « ويقال إن الشافعي رضي الله عنه قدم إلى مصر سنة ١٩٩ هـ ٨١٤ — ٨١٥ م في أول خلافة المأمون ، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن العباس

استصحبه فصحبه ، وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر » . ج ٦ ص ٣٩٤ (١) .

---

(١) وليس معنى ذلك أن الشافعي إنما خرج إلى مصر لمجرد الرغبة فى مصاحبة الوالى ، فقد كان يتشوق إلى مصر من قبل ، ورووا له فى ذلك شعراً :

ارى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ومن دونها جوب الحزونة والوعر
ووالله ما أدرى ألخفض والغنى أساق إليها أم أساق إلى قبرى ؟

وروى هذا الشعر أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان المؤلف نحوسنة ٢٩٠ هـ منسوبا إلى أبى نواس ، فيكون الشافعي قد تمثل بها .

وقد يفهم سبب خروج الشافعي إلى مصر مما ذكره ابن البزاز الكردى فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة على ما فيه من التحامل البين : عن الجارود ابن معاوية قال : كان الشافعي رضى الله عنه بالعراق يصنف الكتب وأصحاب محمد يكسرون عليه أقاويله بالحجج ، و يضعفون أقواله ، ويضعفوا عليه .وأصحاب الحديث أيضا لا يلتفتون إلى قوله ، و يرمونه بالاعتزال ، فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر ولم يكن بها فقيه معلوم فقام بها سوقه . ج ٢ ص ١٥٣

و إذا كان الشافعي قد خرج إلى مصر يلتمس نشر مذهبه فهو إنما أراد أن يلتمس لآرائه ميدانا جديداً بعد أن أدرك النصر فى الحجاز والعراق .

وقال الربيع : سألنى الشافعي عن أهل مصر فقلت : هم فرقتان ، فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه ، وفرقة مالت إلى قول أبى حنيفة وناضلت عليه ، فقال : أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله وآتيهم بشيء أشغلهم عن القولين جميعا . قال الربيع : ففعل ذلك والله حين دخل مصر . ابن حجر ص ٧٧ .

وفى شرح المهذب : «وقال الربيع : قدم الشافعى (مصر) سنة مائتين. ولعله قدم فى آخر سنة تسع ، جمعاً بين الروايتين .

وصنّف كتبه الجديدة كلها بمصر ، وسار ذكره فى البلدان ، وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحى ، للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة » . ص ٩

وفى ابن خلكان : « ثم عاد إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر ، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين » .

وأقام الشافعى بمصر إلى أن مات سنة ٢٠٤ هـ و ٨١٩ — ٨٢٠ م[1] وكان فى آخر عمره عليلا شديد العلة من البواسير ، حتى قالوا : إن صدره أصبح ضيقا ، وإنه كان يقول : إنى لآتى الخطأ وأنا أعرفه . يعنى ترك الحمية.

وفى كتاب « توالى التأسيس » لابن حجر : « قلت : قد اشتهر أن سبب موت الشافعى : أن فتيان بن أبى السمح المالكى المصرى وقعت بينه وبين الشافعى مناظرة ، فبدرت من فتيان بادرة فرفعت إلى أمير مصر ،

---

(١) فى كتاب التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا :
فى ٤ من يناير سنة ٨٢٠ كانت وفاة الإمام محمد بن إدريس الملقب بالشافعى رضى الله عنه، وهوصاحب المذهب الشافعى، ولم يبلغ من العمر أكثر من ٥٤ سنة ودفن بالقرافة الصغرى. ص ١٠٢ .

فطالبه وعزّره ، فحقد ذلك ، فلقى الشافعى ليلاً فضربه بمفتاح حديد فشجّه فتمرض الشافعى منها إلى أن مات . ولم أر ذلك من وجه يعتمد » . ص ٨٦ .

لم تقتل الشافعى شجة « فتيان » المزعومة . إنما قتل الشافعى ما بذله من جهد عنيف فى السنين الأربع التى أقامها بمصر ، ما بين تأليف وتدريس ومناظرة ، وسعى فى بث مذهبه ، ومدافعة كيد خصومه ، هـذا إلى مرضه المنهك ، وقد كان فى ذلك العهد مصابا بنزيف من الباسور .

قال الربيع تلميذه : أقام الشافعى ههنا أربع سنين ، فأملى ألفا وخمسمائة ورقة ، وخرج كتاب «الأم» ألفى ورقة ، وكتاب «السنن» ، وأشياء كثيرة ، كلها فى مدة أربع سنين ، وكان عليلا شديد العلة ... » . ابن حجر ص ٨٣ .

وكان يلازم الاشتغال بالتدريس والإفادة فى جامع عمرو .

وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح ، فجيئه أهل القرآن فيسألونه ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو ، حتى يقرب انتصاف النهار ، ثم ينصرف إلى منزله . ابن حجر ص ٦٢ .

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن حسين البصرى : سمعت طبيبا مصريا

يقول : ورد الشافعى مصر فذاكرنى بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره ، فقلت له : أقرأ عليك شيئاً من كتاب أبقراط ، فأشار إلى الجامع فقال : إن هؤلاء لا يتركوننى . ابن حجر ص ٦٦ .

وقد يكون الشافعى درس الطب فيما درسه من العلوم فى العراق حينما جاءها أول مرة .

وقد يكون درس علوم التنجيم أيضا هناك ، وإنهم ذكروا أن الشافعى اشتغل بعلوم التنجيم ؛ وكل ذلك يدل على ما كان من شغف الإمام بالعلم كله .

وقد يكون هذا الجلوس المتوالى فى الجامع من أسباب ما أصيب به الإمام من المرض .

وذكر الأستاذ مصطفى منير أدهم فى رسالته « رحلة الإمام الشافعى إلى مصر » أن أهل الإمام ذهبوا إلى الوالى فى صباح الليلة التى توفى فيها ، وكان الوالى هو محمد بن السرى بن الحكم ، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام كما أوصى ، فقال لهم الوالى : هل ترك الإمام دينا ؟ قالوا : نعم . فأمر الوالى بسداد ذلك الدين كله ، ثم نظر إليهم وقال لهم : هذا معنى تغسيلى له . ص ٤١ .

وإن صحت هذه القصة التى لم يذكر راويها[١] لها إسناداً فهى تدل على أن الشافعى خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً .

ولسنا نشك فى أن الشافعى مات فقيراً ، لكنا نشك فى أمر استدانته ، فقد روى ابن حجر فى « توالى التأسيس » عن ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو بن سواد السرجى قال : قال لى الشافعى : أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حلى ابنتى وزوجتى ، ولم أستدن قط . ص ٦٧

وتزوج الشافعى (حميدة) بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فولدت له (أبا عثمان محمدا) وكان قاضيا لمدينة حلب ، (وفاطمة) ، (وزينب).

---

(١) وقد عثرت على هذه الرواية فى كتاب (تاريخ مصر) المشهور (ببدائع الزهور فى وقائع الدهور) ولفظه . قيل : لما مرض الإمام الشافعى أوصى بأن لا يغسله إلا أمير البلد ، فلما مات حضر محمد بن السرى أمير البلد ، فقيل له : إن الإمام أوصى بأن لا يغسله إلا أنت ، فقال : هل توفى الإمام وعليه دين ؟ فقيل : نعم. فحسبوا ما عليه من الدين فإذا هو سبعون ألف درهم ، فقضاها عنه محمد بن السرى وقال : هذا غسلى إياه ، وإنما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه . ج ٣ - ص ٣٣

الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي

كان التشريع فى عهد النبى عليه السلام يقوم على الوحى : من الكتاب والسنة ، وعلى الرأى من النبى ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه ، بدون تدقيق فى تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه ، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم

ومضى عهد النبى عليه السلام وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة ١١ هـ – ٦٣٢ إلى سنة ٤٠ هـ – ٦٦٠ وقد اتفق الصحابة فى هذا العهد على استعمال القياس فى الوقائع التى لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم ، وفى هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع بما كان يركن إليه الأئمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة ، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ ، وهم المعتبرون فى الإجماع ، قلة لا يتعذر تعرف الاتفاق بينهم فى حكم من الأحكام .

ولم يكن يفتى من الصحابة إلا حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلالته بناسخه ومنسوخه ، وكانوا يسمون « القراء » لذلك ، وتمييزاً

لم عن سائر الصحابة بهـذا الوصف الغريب فى أمـة أميّة ـ لا تقرأ ولا تكتب .

ثم كان عصر بنى أمية من سنة ٤٠ هـ — ٦٦٠ م إلى سنة ١٣٢ هـ — ٧٤٩ م وتكاثر المارسون للقراءة والكتابة من العرب ، ودخلت فى دين الله أمم ليست أمّية ، فلم يعد لفظ القراء نعتاً غريباً يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين . هنالك استعمل لفظ « العلم » للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار وسمى أهل هـذا الشأن « العلماء » واستعمل لفظ « الفقه » للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلى فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة .

وسمى أهل هذا الشأن « الفقهاء » ، فإذا جمع امرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يرادفهما .

وفى طبقات ابن سعد : « كان ابن عمر جيد الحديث غير جيد الفقه ، وكان زيد بن ثابت فقيهاً فى الدين عالماً بالسنن »

وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليده فى الصحف ، كابن عباس ، والشعبى ، والنخعى ، وقتادة ، ومن ذهب مذهبهم وهؤلاء كلهم عرب طبعوا على الحفظ جبلة العرب

قال ابن عبد البر : من كره كتاب العلم إنما كرهه لوجهين :

أحدهما — ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به ، ولئلا يتكل

الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ . (مختصر جامع بيان العلم ص ٣٤) .

ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين ، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام إلى الموالى إلا قليلا . « عن عطاء قال : دخلت على هشام بن عبد الملك فقال : هل لك علم بعلماء الأمصار ؟ قلت : بلى . قال : فمن فقيه المدينة ؟ قلت : « نافع » مولى ابن عمر ، وفقيه مكة « عطاء بن رباح » المولى ، وفقيه اليمن « طاوس » بن كيسان المولى ، وفقيه الشام « مكحول » المولى ، وفقيه الجزيرة « ميمون » بن مهران المولى ، وفقيها البصرة « الحسن وابن سيرين » الموليان ، وفقيه الكوفة « إبراهيم النخعى العربى . قال هشام : لولا قولك عربى لكادت نفسى تخرج » . مناقب الإمام الأعظم للبزاز ج ١ — ص ٥٧

عندئذ تضاءلت النزعة العربية إلى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمراً لازماً . « عن سعد بن إبراهيم قال : أمرنا عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ — هـ ٧٢٠ م بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل بلد له عليها سلطان دفتراً » . مختصر جامع بيان العلم ص ٣٣ .

وقد بدت مخايل نهضة فى التشريع الإسلامى منذ ذلك العهد فحصل

تدوين بعض السنن و بعض المسائل ، ولم يصل إلينا من تلك المدونات إلّا صدى[1] .

ويقول « جولد زيهر » فى مقاله عن كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية : « وينبغى ألا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام بن عروة من أنه فى يوم الحرة حرّقت لأبيه كتب فقه ، ولا يمكن أن يتصوّر بحال أنّه فى ذلك العهد البعيد كانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هى صحائف متفرقة . وتوفى عروة سنة ٩٤ هـ — ٧١٢ م التى كانت تسمى « سنة الفقهاء » لكثرة من مات فيها من الفقهاء » .

(١) على أن تلك المدونات لم تكن إلا صحائف أو مذكرات . أما أول تدوين للسنن بالمعنى الحقيقى فيقع نحو ما بين سنتى ١٢٠ و ١٥٠ هـ .

ويقول ابن قتيبة : إن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ هو أول من كتب الحديث .

وفى كتاب « كشف الظنون » : « واعلم أنه اختلف فى أول من صنف فقيل : الإمام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى المتوفى سنة ١٥٥هـ ٧٧١ — ٧٧٢ م وقيل أبو النصر سعيد بن أبى عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ — ٧٧٢ — ٧٧٣ م ذكرهما الخطيب البغدادى . وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٦ هـ — ٧٨٢ — ٧٨٣ م » قاله الرامهرمزى » .

وكان مطمح نظرهم بالتدوين ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما » . ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ .

وبالجملة: فإنه إذا كان دوِّن شيء ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما في عهد بني أمية ، فإن التدوين في الفقه بالمعنى المحدث لم يكن إلا في عهد العباسيين .

هذا هو الرأي الذي كان مقررا بين الباحثين ، لكن « جولد زيهر » ذكر في المقال الذي أشرنا إليه آنفا ما يأتي : « وقد اكتشف « جرفيني » بين المخطوطات القيمة في المكتبة «الأمبروزية» بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية ، مختصراً في (الفقه) اسمه (مجموعة زيد بن علي) المتوفى سنة ١٢٢ هـ ــ ٧٤٠ م وهو منسوب إلى مؤسس فرقة (الزيدية) من الشيعة ، وعلى ذلك تكون هذه المجموعة أقدم مجموعة في الفقه الإسلامي . وعلى كل حال ينبغي أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف في الفقه الإسلامي وإذا صح أنه وصل إلينا من بطانة « زيد بن علي » وجب أن نعترف بأن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية » .

على أن البحث الذي أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل .

ومن أسف أنَّ هذا البحث لم يثره مسلمون ، ولا أُثير في بلاد إسلامية . وقد ذكر صاحب « الفهرست » عند الكلام على الزيدية ما نصه :

الزيدية الذين قالوا بامامة زيد بن على عليه السلام ، ثم قالوا بعده بالأمامة فى ولد « فاطمة » كائناً من كان ، بعد أن يكون عنده شروط الإمامة . وأكثر المحدِّثين على هذا المذهب مثل « سفيان بن عيينة » « وسفيان الثورى » ... ص ١٨٧ .

وعلاقة هذين الإمامين بنهضة الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذى يشير إليه « جولد زيهر » شأناً خطيرا .

وجاء عهد العباسيين منذ سنة ١٣٢ هـ و ٧٤٩ ـ ٧٥٠ م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم ، فكان طبيعيا أن تنتعش العلوم الدينية فى ظلهم ، بل كانت حركة النهوض أسرع إلى العلوم الشرعية ؛ لأنها كانت فى دور نمو طبيعى وتكامل .

وهناك سبب آخر يذكره « جولد زيهر » فى كتابه « عقيدة الإسلام وشرعه » هو : « أن حكومة الأمويين كانت متهمة بأنها دنيوية ، فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة ملية » .

كان العباسيون يجعلون حقهم فى الإمامة قائماً على : أنهم سلالة البيت النبوى ، وكانوا يقولون : إنهم سيشيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالزندقة نظاما منطبقا على سنة النبى وأحكام الدين الالهى .

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية ، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة ، كان برنامج الحكم العباسى

وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعى ، جمع الأحكام الشرعية، وتدوينها .

وفى صدر العهد العباسى تمكن الاستنباط واستقرت أصوله وجعل لفظ « الفقه » ينتهى بالتدريج إلى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلى ، أى الاستنباط من الأدلة التى ليست نصوصاً ، وأصبح المعنى الأول للفقه هو : « الأحكام الشرعيـة العملية المأخوذة من أدلتها التفصيلية » نصوصا كانت أو رأياً ، وسمى أهل هذا الشأن بالفقهاء ، ونشأ التأليف فى الفقه بهذا المعنى ، وانقسم الفقه إلى طريقتين : طريقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز .

أهل الرأى وأهل الحديث

ومقدم جماعة أهل الرأى الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه هو : « أبو حنيفة » المعتبر أباً لمذهب أهل العراق ، أسَّسه وأعانه على تأسيسه تلميذاه الجليلان : « أبو يوسف » القاضى المتوفى سنة ١٨٢ هـ — ٧٩٧ م و « محمد بن الحسن » الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩ هـ — ٨٠٤ م

ولئن كان حماد بن سليمان الكوفى المتوفى سنة ١٢٠ هـ — ٧٣٧ و ٧٣٨ م هو أول من جمع حوله طائفة من التلاميذ يعلمهم الفقه ، مع ميل غالب للرأى ، وكان « أبو حنيفة » من هؤلاء التلاميذ ، فإن حماداً لم يترك أثراً علميا مكتوبا . أما أبو حنيفة فيقول صاحب «الفهرست»: «وله من الكتب كتاب الفقه الأكبر — كتاب رسالته إلى البستى — كتاب العالم والمتعلم رواه عنه مقاتل — كتاب الرد على القدرية — والعالم براً وبحراً ، شرقا وغربا ، بعداً وقربا ، تدوينه رضى الله عنه» . ص ٢٠٢

ويذكر الموفق بن أحمد المكى الحنفى فى كتابه « مناقب الإمام الأعظم »

أثر أبي حنيفة فى الفقه بقوله ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ : « وأبو حنيفة أول من دون علم الشريعة ، لم يسبقه أحد ممن قبله؛ لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا فى علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا كتباً مرتبة إنما كانوا يعتمدون على قوة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديقَ علمهم ، فنشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف عليه الخلفَ السوء أن يُضيعوه. ولهذا قال ﷺ : إن الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، وإنما ينتزعه بموت العلماء، فيبقى رؤساء جهّال فيفتون بغير علم ، فيضلون ويضلّون . فلذلك دونه أبو حنيفة فجعله أبواباً مبوبة ، وكتباً مرتبة ، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات على الولاء ، ثم بالمعاملات ، ثم ختم بكتاب المواريث .

وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة لأنّ المكلّف بعد صحة الاعتقاد أول ما يخاطب بالصلوات ، لأنها أخص العبادات وأعم وجوباً ، وأخّر المعاملات لأنّ الأصل عدمها وبراءة الذمة منها . وختمه بالوصايا والمواريث لأنها آخر أحوال الإنسان . فما أحسن ما ابتدأ به وختم، وما أحذقه وأفهمَه وأفقهَ وأمهر وأعلم وأبصر!

ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا من علمه، واقتدوا به، وفرّعوا كتبهم على كتبه . ولهـذا روينا بإسناد حسن عن الشافعى ـ رحمه الله ـ أنه قال فى حديث طويل . « العلماء عيال على أبى حنيفة فى الفقه » .

وروى عن ابن سريج ـ رحمه الله ـ أنه سمع رجلا يتكلّم فى أبى حنيفة ، فقال له : ياهذا مَهْ ، فإنّ ثلاثة أرباع العلم مسلّمة له بالإجماع ، والرابع لايسلمه لهم .

قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن العلم سؤال وجواب ، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم ، ثم أجاب عنها فقال بعض : أصاب ، وبعض : أخطأ ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف النصف الثانى ، والربع الرابع ينازعهم فيه ولا يسلم لهم . . . ولأنه ـ رحمه الله ـ أول من وضع كتاباً فى الفرائض ، وأول من وضع كتاباً فى الشروط ، والشروط لايستطيع أن يضعها إلّا من تناهى فى العلم وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم ؛ لأن الشروط تتفرع على جميع كتب الفقه ويتحرّز بها من كلّ المذاهب لئلا ينقضها حاكم بنقض أو فسخ . . . وقد قيل بلغت مسائل أبى حنيفة خمسمائة ألف مسألة وكتبه وكتب أصحابه تدل على ذلك »

وجملة القول : أن صاحب مذهب أهل الرأى هو الذى رتب أبواب الفقه ، وأكثر من جمع مسائله فى الأبواب المختلفة ، وكان الحديث قليلا فى العراق فاستكثروا من القياس ومهروا فيه ، فلذلك قيل : « أهل الرأى »

وإنما كان أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دارالهجرة ، ومأوى الصحابة . ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد وغيره من شؤون الدولة أكثر .

ومذهب أهل العراق كان يقصد إلى جعل الفقه وافيا بحاجة الدولة التشريعية ، فكان همه أن يجعل الفقه فصولا مرتبة يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفتاء ، وكان همه أن يكثر التفاريع حتى تقوم بما يعرض ويتجدد من الحوادث . لا جرم كان مذهب أهل الرأى مذهب القضاء ، وكان أئمته قضاة كأبى يوسف ، ومحمد . وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بكثرة مسائلهم وقلة روايتهم .

وسئل رقبة بن مصقلة عن أبى حنيفة فقال : « هو أعلم الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما قد كان . وقد روى هذا القول عن حفص بن غياث فى أبى حنيفة . يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى » . عن كتاب مختصر جامع بيان العلم .

ويروى ابن عبد البر فى كتاب « الانتقاء » ص ١٤٧ « عن الحكم بن واقد قال : رأيت أبا حنيفة يفتى من أول النهار إلى أن يعلو النهار ، فلما خف عنه الناس دنوت منه فقلت : يا أبا حنيفة، لو أن أبا بكر وعمر فى مجلسنا هذا ثم ورد عليهما ما ورد عليك من هذه المسائل المشكلة لكفا عن بعض الجواب ووقفا عنه . فنظر إليه وقال : أمحموم أنت ؟ يعنى مبرسما » .

أما أهل الحديث — أهل الحجاز — فإمامهم « مالك بن أنس » وكانت طريقة أهل الحجاز فى الأسانيد أعلى من سواهم وأمتن فى الصحة

لاشتدادهم فى شروط النقل من العدالة والضبط ، وتجافيهم عن قبول « المجهول الحال » ، فى ذلك .

وكتب « مالك » كتاب « الموطأ » وأودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه .

وفى كتاب (تبييض الصحيفة) : أن (مالكا) فى ترتيبه للموطأ متابع لأبى حنيفة . ومن العسير إثبات ذلك ، فان أبا حنيفة ومالكا كانا متعاصرين ، وإن تأخر الأجل بمالك . وأقدم ما حفظ من المجاميع الفقهية المؤلفة فى عصور الفقه الأولى بين السنيين هو « موطأ مالك » .

ويقول صاحب الفهرست فى سرد كتب مالك : « .. وله من الكتب كتاب الموطأ — كتاب رسالته إلى الرشيد » . ص ١٩٩

وكانت وجهة أهل الحجاز كوجهة أهل العراق : تدوين الأحكام الشرعية مبوبة مرتبة ، إلا أن اعتماد أهل الحديث على السنة أكثر من اعتمادهم على الرأى ، بل هم كانوا يعتبرون الرأى ضرورة لا يلجأون إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان .

وقد روى عن مالك : أنه قال فى بعض ما كان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه : ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ . مختصر جامع بيان العلم ص ١٩٢ .

وكان أهل الحديث يكرهون أن يتكاثر الناس بالمسائل كما يتكاثر أهل الدرهم بالدراهم ، وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن ، قالوا : ألا ترى أنهم كانوا يكرهون الجواب فى مسائل الأحكام ما لم تنزل ، فكيف بوضع الاستحسان والظن والتكلف وتسطير ذلك واتخاذه دينا !

وفى « الانتقاء » : « قال الهيثم بن جميل : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها : لا أدرى » .

ولم يكن أهل الحديث مع ذلك ينكرون اجتهاد الرأى ، والقياس على الأصول فى النازلة تنزل عند عدم النصوص .

الشافعي بين أهل الرأي وأهل الحديث

ظهر الشافعي والأمر على ما وصفنا، من نهضة الدراسة الفقهية فى بلاد الإسلام نهضة ترمى إلى الوفاء بالحاجة العملية فى دولة تريد أن تجعل أحكام الشرع دستوراً لها، ومن انقسام الفقهاء إلى أهل رأى يعتمدون فى نهضتهم على سرعة أفهامهم، ونفاذ عقولهم، وقوتهم فى الجدل؛ وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار، ولا يأخذون من الرأى إلا بما تدعو إليه الضرورة.

كان أهل الرأى يعيبون أصحاب الحديث بالإكثار من الروايات، الذى هو مظنة لقلة التدبر والتفهم. «حكى عن أبى يوسف قال: سألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لاغير، فأجبته، فقال لى: من أين قلت هذا يا يعقوب؟ فقلت: بالحديث الذى حدثتنى أنت. فقال: يا يعقوب إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجتمع أبواك، ماعرفت تأويله إلى الآن». مختصر جامع بيان العلم ص ١٨٢.

فأصحاب الحديث كانوا حافظين لأخبار رسول الله ، الا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل ، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو إشكالا سُقِط فى أيديهم متحيرين . الرازى ص ٣٨ .

هم ضعاف فى الإستنباط وفى القدرة على دفع المطاعن والشبهات عن الحديث .

وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يأخذون فى دينهم بالظن ، وأنهم ليسوا للسنة أنصارا ولا هم فيها بمتثبتين ؛ فإن أصحاب أبى حنيفة يقدمون القياس الجلى على خبر الواحد ، وهم يقبلون المراسيل ، والمجاهيل ، أى الحديث المرسل الذى أسنده التابعى أو تابع التابعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابى الذى روى الحديث . أما المجاهيل فهم مجهولو الحال من الرواة .

ثم لا يقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفا للقياس ، ولا يقبلونه فى الواقعة التى تعم فيها البلوى . الرازى ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

كانت الحال على ما ذكرنا حين جاء الشافعى ، وقد تفقه الشافعى أول ما تفقه على أهل الحديث من علماء مكة ، كمسلم بن خالد الزنجى ، وسفيان بن عيينة ، ثم ذهب إلى إمام أهل الحديث « مالك بن أنس » فى المدينة فلزمه ، ولقى من عطفه ومن فضله ما جعله يحبه ويجلّه . « عن يونس بن عبد الأعلى

أنه سمع الشافعي يقول : « إذا ذكر العلماء فمالكٌ النّجم ، وما أحد أَمنُّ عليَّ من مالك بن أنس » . الانتقاء ص ٢٣ .

على أن نشأة الشافعي لم تكن من كل وجه نشأة أهل الحديث ، ولا استعداده استعدادهم .

لقد توجه فى أول أمره إلى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس ، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لا يرونها من العلم النافع . « حُكي عن مصعب الزُّبيري قال : كان أبي والشافعي يتناشدان ، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً وقال : لا تُعْلِمْ بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا » . معجم الأدباء ج ٦ ص ٣٨٠

وكان الشافعي بطبعه نهما فى العلم ، يلتمس كل ما يجده من فنونه ، وقد ذكر من ترجموا له : أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب إلى اليمن ، وعالج التنجيم والطبّ ، وربما كان درسهما فى إحدى رحلاته إلى العراق ، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية ، وكان الطب فرعا من العلم الطبيعي . والعلم الرياضي والعلم الطبيعي قسمان من أقسام الفلسفة التي كان مسلمو العراق أخذوا يتنسمون ريحها . وكان الشافعي مغرى بالرمى فى شبابه ولم يكن فى كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة يدعو لهم ويدعم بالمال ، ويظهر : أنه لم يكن شديدا فى جرح الرجال كعادة أهل الحديث . وقد نقل

صاحب كتاب « طبقات الشافعيـة الـكبرى » حكاية تدل على سخرية الشافعي من تزمت المزكين .

« قال الشافعي — رضي الله عنه — حضرت بمصر رجلا مزكيًا يجرّح رجلا ، فسئل عن سببه وألح عليه فقال : رأيته يبول قائمًا ، قيل وما فى ذلك؟ قال : يرد الريح من رشاشه على بدنه وثيابه فيصلّي فيه. قيل: هل رأيته أصابه الرشاش وصلى قبل أن يغسل ما أصابه ؟ قال : لا ولـكن أراه سيفعل » . ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

وكان فى العلمـاء المعاصرين للشافعي ، بل أهل الرأى منهم، بله أهل الحديث، من لا يراه ممعنا فى الحديث. «عن أبى عبد الله الصاغانى يحدث عن يحيى بن أكثم قال : كنا عند محمد بن الحسن فى المناظرة ، وكان الشافعى رجلا قرشي العقل والفهم ، صافى الذهن ، سريع الإصابة ، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء». ابن حجر ص ٥٩.

ولما ذهب الشافعى إلى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأى على أستاذه مالك وعلى مذهبه ، وكان أهل الرأى أقوى سـندا وأعظم جاها بما لهم من المكانة عند الخلفاء ، وبتوليهم شؤون القضاء ، ذلك إلى أنهم أوسع حيلة فى الجدل من أهل الحديث وأنفذ بيانا . ويمثل حال الفريقين من هذه الناحية، ما روى عن إمامَيْ أهل الرأى وأهل الحديث : أبى حنيفة ومالك .

روى ابن عبد البر المالكي عن الطبري قال : وكان مالك قد ضرب بالسياط ، واختلف فيمن ضربه وفي السبب الذي ضرب فيه . قال : فحدثني العباس بن الوليد قال : خبرنا ذكوان عن مروان الطاطري، أن أبا جعفر نهى مالكا عن الحديث : « ليس على مستكره طلاق » ، ثم دسّ إليه من يسأله عنه ، فحدث به على رؤوس الناس . الانتقاء ص٤٣ ، ٤٤ .

أما أبو حنيفة فينقل في شأنه الموفق المكي في كتاب « المناقب » : « عن معمر بن الحسن الهروي يقول : اجتمع أبو حنيفة ومحمد بن إسحاق عند أبي جعفر المنصور ، وكان جمع العلماء والفقهاء ، من أهل الكوفة والمدينة وسائر الأمصار ، لأمر حزبه ، وبعث إلى أبي حنيفة فنقله على البريد إلى بغداد ، فلم يخرجه من ذلك الأمر الذي وقع له إلا أبو حنيفة ، فلما قضيت الحاجة على يديه حبسه عند نفسه ليرفع القضاة والحكام الأمور إليه ، فيكون هو الذي ينفذ الأمور ويفصل الأحكام ، وحبس محمد بن إسحاق ليجمع لابنه المهدي حروب النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته . قال : فاجتمعا يوماً عنده ، وكان محمد بن إسحاق يحسده لما كان يرى من المنصور من تفضيله وتقديمه واستشارته فيما ينوبه وينوب رعيته وقضاته وحكامه ، وسأل أبا حنيفة عن مسألة أراد بها أن يغيّر المنصور عليه ، فقال له : ما تقول يا أبا حنيفة في رجل حلف ألا يفعل كذا وكذا ، أو أن يفعل كذا وكذا ، ولم يقل إن شاء الله ، موصولا

باليمين ، وقال ذلك بعد ما فرغ من يمينه وسكت ؟ فقال أبو حنيفة : لاينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعاً من اليمين ، وإنما كان ينفعه إذا كان موصولا به. فقال : وكيف لا ينفعه وقد قال جدُّ أمير المؤمنين الأكبر أبو العباس عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما أن استثناءه جائز ، ولو كان بعد سنة ، واحتجَّ بقوله عز وجل : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ؟ فقال المنصور لمحمد بن إسحاق : أهكذا قال أبو العباس صلوات الله عليه ؟ قال نعم ! فالتفت إلى أبي حنيفة — رحمه الله — وقد علاه الغضب ، فقال تُخالف أبا العباس ؟ فقال أبو حنيفة : لم أخالف أبا العباس ، ولقول أبي العباس عندي تأويل يخرج على الصحة ، ولكن بلغني أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين واستثنى فلا حنث عليه » . وإنما وضعناه إذا كان موصولاً باليمين ، وهؤلاء لا يرون خلافتك ، لهذا يحتجون بخبر أبي العباس ، فقال له المنصور كيف ذلك ؟ قال لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تقيــة ، وإن لهم الثُّنيا متى شاءوا ، يخرجون بها من بيعتك ولا يبقى في أعناقهم من ذلك شيء . قال : هكذا ؟ قال : نعم . فقال المنصور خذوا هذا ، يعني محمد بن إسحاق . فأخذ وجعل رداؤه في عنقه وحبسوه » ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٤

كان طبيعياً أنْ يجادل الشافعي عن أستاذه وعن مذهب أستاذه ، وقد نهض الشافعي لذلك قوياً بعقله ، قوياً بعلمه ، قوياً بفصاحته ، قوياً بشباب

فى عنفوانه ، وحمية عربية . وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعى عن مالك ومذهبه : عن محمد بن الحكم قال : سمعت الشافعى يقول : قال لى محمد بن الحسن : صاحبنا أعلمُ من صاحبكم، يعنى « أبا حنيفة ومالكا » ، وما كان على صاحبكم أن يتكلمَّ ، وما كان لصاحبنا أن يسكت . قال : فغضبت وقلت : نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالك أو أبو حنيفة ؟ قال : مالك ، لكن صاحبنا أقيَس . فقلت : نعم ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبى حنيفة فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام » . الانتقاء ص ٢٤ .

كان هذا الحجاج عن مذهب مالك ، فى قدوم الشافعى إلى العراق أول مرة . وأقام الشافعى فى العراق زمناً غير قصير ، ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأى فيما درس فى العراق ، ولازم محمد بن الحسن ، وردّ على بعض أقواله وآرائه نصيراً لأهل الحديث

ولا شك أن الشافعى فى ذلك العهد كان متأثراً بمذهب أهل الحديث ، ومتأثراً بملازمة عالم دار الهجرة ، فهو كان يدافع عن مذهبه بدافع حميّته لأستاذه وأنصار أستاذه المستضعفين .

أما ابن البزاز الكردرى فهو يروى فى سبب اختلاف الشافعى على محمد ابن الحسن روايات يقول فيها ، « عن عبد الرحمن الشافعى : لم يعرف الشافعى لمحمد حقه ، وأحسن إليه فلم يف له . وعن إسماعيل المزنى ، قال الإمام الشافعى :

حُبست بالعراق لدَين فسمع محمـدٌ بى نخلصنى، فأنا له شاكر من بين الجميع .
وعن ابن سماعة قال : أفلس الشافعى غير مرّة فجاء إلى محمد فحدّث أصحابه فجمع له مائة ألف ، فكان فيه قضاء حاجته ، ثم أفلس مرة أخرى فجمع له سبعين ألف درهم ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : لا أذهب مروءتى من بين أصحابى ، لو كان فيك خيرٌ لكفاك ماجمعتُ لك ولعقبك . وكان قبل هذا مولعاً بكتبه يناظر أوساط أصحابه ويعدُّ نفسه منهم ، فلما أتى محمداً الثالثةَ أظهر الخلاف » .
المناقب ج ٢ ـ ص ١٥٠ و ١٥١

والشافعى نفسه يرد على ذلك ، فقد أخرج الحاكم من طريق محفوظ ابن أبى توبة قال : سمعت الشافعى يقول : يقولون إنى إنما أخالفهم للدنيا ، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم ؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه ؟ وقد منعت ما ألَذُّ من المطاعم ، ولا سبيل إلى النكاح — يعنى لِما كان به من البواسير — ولكن لست أخالف إلا من خالف سنة رسول الله . ابن حجر ص ٧٦ .

آثاره وكتبه

ولما عاد الشافعي إلى بغداد في سنة ١٩٥ هـ — ٨١٠ — ٨١١ م ليقيم فيها سنتين اشتغل بالتدريس والتأليف . وروى البغدادي في « كتاب تاريخ بغداد » :

. «عن أبي الفضل الزجاج يقول : لما قدم الشافعي إلى بغداد وكان في الجامع إما نيّف وأربعون حلقة ، أو خمسون حلقة ، فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة، ويقول لهم : قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون: قال أصحابنا . حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره » . ص٦٨ ، ٦٩ .

واختلف إلى دروس الشافعي جماعة من كبار أهل الرأي كأحمد بن حنبل وأبي ثور ، فانتقلوا عن مذهب أهل الرأي إلى مذهبه . ويروى عن أحمد بن حنبل أنه قال : « ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة إلا وللشافعي عليه منّة » ، فقلنا : يا أبا محمد كيف ذلك ؟ قال : إن أصحاب الرأي كانوا

يهزؤون بأصحاب الحديث حتى علَّمهم الشافعي وأقام الحجة عليهم ».
الانتقاء ص ٧٦.

ووضع الشافعي في بغـداد كتاب « الحجة » . « روى ابن حجر عن البويطي أن الشافعي قال : اجتمع عليَّ أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة ، فقلت . لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم . فأمرت فكُتِبَ لي كتُبُ محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها ، ثم وضعت الـكتاب البغدادي ، يعني « الحجة » . ص ٧٦

ويظهر من ذلك : أن مذهب الشافعي القديم الذي وضعه في بغداد كان في جل أمره ردًّا على مذهب أهل الرأي ، وكان قريباً إلى مذهب أهل الحديث .

وروى البغدادي عن حرملة : أنه سمع الشافعي يقول : « سُميت ببغداد ناصر الحديث » . ج ٢ ص ٦٨

ونقل ابن حجر عن البيهقي : أن كتاب « الحجة » الذي صنفه الشافعي ببغداد حمله عنه الزعفراني ، وله كتب أخرى حملها غير الزعفراني ، منها : كتاب « السير » ، رواية ابي عبد الرحمن أحمد بن يحيى الشافعي » .

وفي كتاب كشف الظنون :

« الحجة » للإمام الشافعي ، وهو مجلد ضخم ألفه بالعراق ، إذا أطلق

القديم من مذهبه يراد به هذا التصنيف ، قاله الأسنوىّ فى المهمات . ويطلق ما أفتى به هناك أيضاً » .

ثم انتهى الشافعى إلى مصر فآزره تلاميذ مالك ، حتى إذا وضع مذهبه الجديد وأخذ يؤلّف الكتب ردًّا على مالك تنكّروا له وأصابته منهم محن

« قال الربيع : سمعت الشافعى يقول : قدمت مصر لا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلّا ستة عشر حديثاً ، فنظرت فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع ، ويقول بالفرع ويدع الأصل .

ثم ذكر الشافعى فى ردّه على مالك ، المسائل التى ترك الأخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين ، أو لرأى نفسه

ثم ذكر ما ترك فيه أقاويل الصحابة لرأى بعض التابعين أو لرأى نفسه وذلك أنه ربما يدعى الإجماع ، وهو مختلف فيه .

ثم بين الشافعى أن ادعاء أن إجماع أهل المدينة حجة ، قول ضعيف » .

الرازى ص ٣٦

ويروى بعض الرواة : أنّ الشافعى إنما وضع الكتب على مالك لأنّه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها ، وكان يقال لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : قال مالك . فقال الشافعى : إن مالكاً بشر

تخطىء فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب فى اختلافه معه . وكان يقول : استخرت الله تعالى فى ذلك . ابن حجر ص ٧٦ .

ومذهب الشافعى الجديد الذى وضعه فى مصر هو الذى يدل على شخصيته وينم عن عبقريته ، ويبرز استقلاله .

« سئل أحمد : ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك ، أم التى بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه وضع هذه الكتب بالعراق لم يحكمها ، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك ، كما رويه الذهبى فى تاريخه الكبير » هامش الانتقاء ص ٧٧ .

ومذهب الشافعى الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب . وقد سرد البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ — ١٠٦٥ — ١٠٦٦ م كتب الشافعى ولخصها عنه ابن حجر فى ص ٧٨ :

(الرسالة القديمة ، ثم الجديدة — اختلاف الحديث ، جماع العلم — إبطال الاستحسان — أحكام القرآن — بيان الفرض — صفة الأمر والنهى — اختلاف مالك والشافعى — اختلاف العراقيين — اختلافه مع محمد بن الحسن — كتاب على وعبد الله — فضائل قريش — كتاب الأم .

وعدة كتب الأم مائة ونيف وأربعون كتابا . وحمل عنه حرملة كتابا كبيراً يسمى « كتاب السنن » ، وحمل عنه المزنى كتابه « المبسوط » وهو

المختصر الكبير، والمنثورات، وكذا المختصر المشهور. قال البيهقي: وبعض كتبه الجديدة لم يُعد تصنيفها، وهي: الصيام — والصداق — والحدود — والرهن الصغير — والإجارة — والجنائز — فإنه أمر بقراءة هذه الكتب عليه في الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده. قال: وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه في مواضع أخرى.

قلت: وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيراً من الأشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعي الرجوع عنها وهي موجودة في بعض هذه الكتب.

ثم نقل ابن حجر: أن لأصحاب الشافعي من أهل الحجاز والعراق عنه مسائل وزيادات. قال: وهذا يدل على أنَّ «كتباً أخرى حملها عنه هؤلاء؛ لأن هذه المسائل ليست في الكتب المقدم ذكرها».

وقد ترك ابن حجر في تلخيصه: كتاب «مسند الشافعي» ولا ندرى: أن كان البيهقي قد تركه أيضاً أم لا؟ ويقول الرازي: «إن كتابه المسمى بمسند الشافعي كتاب مشهور في الدنيا». ص ١٤٦.

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعي إلى جمع المسائل وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية عند ما تكون دلائلها نصوصاً.

وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم على النص كانوا أكثر تعرضاً لذكر الدلائل من أهل الرأى —

فلما جاء الشافعي بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين، ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله ، وأخذ ينقص بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط

وذلك يشعر بأن اتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعنى بالجزئيات والفروع

ويدل على أن اتجاه الشافعي لم يكن إلى تمحيص الفروع : ما نقله ابن عبد البر في « الانتقاء » من : أن أحمد بن حنبل قال : « قال الشافعي لنا : أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني أن يكون كوفيا ، أو بصريا أو شاميا ، أذهب إليه إذا كان صحيحا » . ص ٧٥

وطريقة علاجه لمسائل العلم تدل على منهجه ، قال أبو محمد بن أخت الشافعي عن أمه قالت : ربما مددنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدي الشافعي ، وكان يستلقي ويتذكر ثم ينادي : ياجارية ، هلمي مصباحا، فتقدمه ويكتب ما يكتب، ثم يقول : ارفعيه. فقيل لأحمد : ما أراد برد المصباح ؟ قال : الظلمة أجلى للقلب . مفتاح السعادة ج ٢ ص ٩١

وليس هذا النوع من التفكير الهادئ في ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع ، بل هو تفكير من يعنى بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفي

قال ابن سينا فى الشفاء : « إنا لا نشتغل بالنظر فى الجزئيات لكونها لا تتناهى ، وأحوالها لا تثبت . وليس علمنا بها من حيث هى جزئية تفيدنا كمالا حكميا أو تبلغنا غاية حكمية ، بل الذى يهمنا هو النظر فى الكليات » .

وكان أحمد يقول : « الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة — واختلاف الناس — والمعانى — والفقه » (الرازى ص ٣٥) .

وقد حاول الشافعى : أن يجمع أصول الاستنباط الفقهى وقواعدها علما ممتازا ، وأن يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العلم .

وبهذا يمتاز مذهب الشافعى من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز .

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه

إذا كان الشافعي هو أول من وجّه الدراسات الفقهية إلى ناحية علمية فهو أيضا: أول من وضع مصنفا في العلوم الدينية الإسلامية على منهج علميّ، بتصنيفه في أصول الفقه. قال الرازى: اتفق الناس على أن أول من صنف فى هذا العلم — أى علم أصول الفقه — الشافعي، وهو الذى رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها فى القوة والضعف.

وروى: أن عبد الرحمن بن مهدى، التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه: شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة، والإجماع، والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي رضى الله عنه « الرسالة » وبعثها إليه، فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدى قال: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل.

ثم قال الرازى: واعلم: أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة

« أرسططاليس » إلى علم « المنطق »، وكنسبة « الخليل بن أحمد » إلى علم « العروض »

وذلك لأن الناس كانوا قبل « أرسطاليس » يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة ، لكن ما كان عندهم قانون مخلص فى كيفية ترتيب الحدود والبراهين ، فلا جرم ، كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة ؛ فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلى ، قلما يفلح .

فلما رأى «أرسطاليس» ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج علم « المنطق »، ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة الحدود والبراهين .

وكذلك الشعراء كانوا قبل « الخليل بن أحمد » ينظمون أشعارا ، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع ، فاستخرج « الخليل » علم « العروض » فكان ذلك قانونا كليا فى معرفة مصالح الشعر ومفاسده . فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعى يتكلمون فى مسائل « أصول الفقه » ويستدلون ، ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلى مرجوع إليه فى معرفة دلائل الشريعة وفى كيفية معارضتها ، وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعى علم « أصول الفقه » ووضع للخلق قانونا كليا يرجع إليه فى معرفة مراتب أدلة الشرع .. ثم يقول الرازى :

واعلم أنَّ الشافعى صنف كتاب « الرسالة » ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب « الرسالة »، وفى كل واحد منهما علم كثير. ص ٩٨ – ١٠٢.

ويقول « بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى » المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ١٣٩١–١٣٩٢ م فى كتابه فى أصول الفقه، المسمى بالبحر المحيط: « فصل »: الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس، الذى ذكر فيه؛ تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهاداتهم

ثم تبعه المصنفون فى علم الأصول. قال أحمد بن حنبل: « لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتى ورد الشافعى ».

وقال الجوينى فى شرح الرسالة. لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف « الأصول » ومعرفتها، وقد حكى عن ابن عباس « تخصيص عموم » وعن بعضهم « القول بالمفهوم »، ومن بعدهم لم يقل فى الأصول شىء ولم يكن لهم فيه قدم؛ فإنا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه. من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس.

ويقول ابن خلدون فى المقدمة: « وكان أول من كتب فيه – أى فى علم أصول الفقه – الشافعى رضى الله عنه، أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها فى: الأوامر والنواهى، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة، من

القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضاً . ص ٣٩٧

وفى كتاب « طبقات الفقهاء » للقاضى شمس الدين العثمانى الصفدى : « وابتكر الشافعى ما لم يسبق إليه ، من ذلك أصول الفقه؛ فانه أول من صنف أصول الفقه بلا خلاف ، ومن ذلك كتاب القسامه ، وكتاب الجزية ، وكتاب قتال أهل البغى » . من نسخة خطية بدار الكتب الأهليه بباريس .

ويقول صاحب كتاب « كشف الظنون » : « وأول من صنف فيه الإمام الشافعى » ذكره الأسنوى فى التمهيد، وحكى الإجماع فيه . ص ٣٣٤

والباحثون فى هذا الشأن من الغربيين يرون فى الشافعى : واضعاً « لأصول الفقه » . يقول « جولد زيهر » فى مقالته فى كلمة (فقه) فى دائرة المعارف الإسلامية : « أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعى أنه وضع نظام الاستنباط الشرعى من أصول الفقه، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول. وقد ابتدع فى (رسالته) نظاماً للقياس العقلى الذى ينبغى الرجوع إليه فى التشريع ، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم، ورتب الاستنباط من هذه الأصول، ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما كان جزافاً »

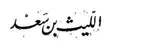
على أنا نجد فى كتاب الفهرست فى ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمى « كتاب أصول الفقه »

ويقول الموفق المكى فى كتابه : « مناقب الإمام الأعظم » نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر ؛ أن أبايوسف أول من وضع الكتب فى « أصول الفقه » على مذهب أبى حنيفة . ج ٢ ص ٢٤٥.

ونقل ذلك طاش كبرى زاده فى كتابه «مفتاح السعادة» ج ٢ ص ١٠٢ ولم يرد كتاب فى هذا العلم، فيما أورده صاحب «الفهرست»، لأبى يوسف من الكتب. وإذا صح أنّ لأبى يوسف أو لمحمد كتاباً فى أصول الفقه فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان.

وقد يؤيد ذلك ، أن صاحب « الفهرست » ذكر فى أسماء كتب أبى يوسف « كتاب الجوامع » ألفه ليحيى بن خالد، يحتوى على أربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأى المأخوذ به . ولم يكن فى طبيعة مذهب أهل الرأى الذين كان من همهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها ـ النزوع إلى تقييد الاستنباط بقواعد لا تتركه متسعا رحبا. على أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم فى (أصول الفقه) على مذهب أبى حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعى هو الذى وضع (أصول الفقه) علماً ذا قواعد عامة يرجع إليها كل مستنبط لحكم شرعى .

وقد لا يكون بعيدا عن غرض « الشافعى » فى وضع « أصول الفقه » : أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ويمهّد للوحدة التى دعا إليها الإسلام .


الليث بن سعد

الليث بن سعد

من المشتغلين بتاريخ الثقافة الإسلامية مَن يريدون أن يخصوا بعنايتهم الجانب المصرى من هـذه الثقافة فيدرسوا سير العلماء والأدباء من المصريين الذين ساهموا فى نشأة المعارف الإسلامية ، وساهموا فى السير بها إلى الكمال. وهم بهـذه الدراسة يمهّدون لدرس خصائص الجانب المصرى من الثقافة الإسلامية .

ويرى أهل هذا المذهب أن فى ذلك عوناً على استيفاء البحث فى الآداب والمعارف الإسلامية

فإن الثقافة الإسلامية ذات فروع وعناصر متفاوتة ، يجب تعرف ألوانها ومذاهبها للإحاطة بكل ما لهذه الثقافة من خصائص ومميزات .

وفى هذا الاتجاه نوع من توزيع العمل بين المشتغلين لخدمة غرض مشترك، وهو تلك الثقافة الإسلامية ، التى هى تراث مجيد للشرق الإسلامى ، بل هى فى تاريخ الثقافات الإنسانية تراث مجيد .

ولمصر خاصةً فائدةٌ من هذا الاتجاه ، إذ هو سبيل إلى توثيق الصلة بين الماضى والحاضر ، و إلى مراعاة الاتساق بين حلقات التاريخ .

وحق على المصلحين والمجدِّدين فى جماعة من الجماعات أن يتبيَّنوا ما سجل التاريخ من منازع هـذه الجماعة فى علومها وآدابها حتى يسيروا فى تجديدهم و إصلاحهم على هدى .

غير أن المصريين متَّهَمون بأنهم يبخسون فضل أهل الفضل منهم ، على حين يمنحون الغرباء تقديرهم جزافاً . فواجب علينا أن نبرئ من هذه التهمة قومَنا . ومن وسائل ذلك أن نُحيى ذكرى العظماء من أسلافنا ، وأن ننصف اليوم من قد يكون التاريخ لم يعطهم كل ما يستحقون من إنصاف .

***

يذكر المؤرخون أن الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ قال :

« الليث أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به » . وفى رواية عن الشافعى : « ضَيَّعَهُ قومه » . وفى أخرى : « ضَيَّعَهُ أصحابه » .

قال ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ فى كتابه المسمى « كتاب الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية » :

« لـكنه ما صنف شيئاً من الـكتب ولا دوّن أصحابه المسائل عنه ،

ولذلك قال الشافعي : ضيعهُ أصحابه . يعنى لم يدوّنوا فقهه كما دوّنوا فقه مالك وغيره، وإن كان بعضهم قد جمع منها شيئاً » . (ص ٩) .

وقول ابن حجر إن الليث لم يصنِّف شيئاً من الكتب، يخالفه ما يذكره ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ ، فى كتاب الفهرست، من أن لِلّيث بن سعد « كتاب التاريخ » و « كتاب مسائل فى الفقه » .

وإذا كان قوم الليث بن سعد أو اصحابه قد ضيّعوه على ما يقول الشافعى فلعلّنا نحفظ اليوم بعضَ ما ضيعوا .

* * *

الليث بن سعد يكنى أبا الحارث ، ومن المؤرخين مَن يقول : هو ليث بن سعد بن عبد الرحمن ، وهو فيما يذكر ابن خلكان مولى بنى فهم . وبنو فهم بطن من قيس . لذلك يقال مولى بنى قيس .

ويقول أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ فى كتاب تاريخ بغداد : « ليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث ، فقيه أهل مصر ، يقال إنه مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى . وأهل بيته يقولون : نحن من الفرس من أهل أصبهان . وروى عن الليث أنه قال مثل ذلك . والمشهور أنه فهميّ ، ولد بقرقشندة ، وهى قرية من أسفل أرض مصر » . (ج ١٣ ص ٢) .

وسياق الـكلام يفيد أن المشهور كون الليث عربيا من «فهم» . ونقل البغدادى رواية عن أبى مُسلم صالح بن أحمد بن عبد الله العجلى عن أبيه قال: ليث بن سعد يكنى أبا الحارث ، مصرى فهمى ثقة » . (ص ١٣) .

قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى المتوفى سـنة ٨٢١ فى كتاب « صبح الأعشى » :

« قلت ومن بلادها — أى القليوبية — بلدتنـا قلقشندة وهى بلدة حسنة المنظر غزيرة الفواكه، وإليها ينسب الليث بن سعد ، الإمام الـكبير. وقد ذكر ابن يونس فى تاريخه أنه ولد بهـا . قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثبات عندنا . قال ابن خلـكان : بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة — وهكذا هى مكتوبة فى دواوين الديار المصرية . وأبدل ياقوت فى معجم البلدان اللام راء ، وهو الجارى على ألسنة العامة ، وعليـه جرى القضاعى فيا رأيتـه مكتوبا فى خططه » . « ج ٣ ص ٤٠٣ » .

قال القلقشندى بعد ذلك :

« وقال القضاعى فى خططه فى الـكلام على دار الليث بالفسطاط : وكان له دار بقرقشندة بالريف ، بناها فهدمها ابن رفاعة أمير مصر عناداً له ،

وكان ابن عمه ، فبناها الليث ثانيـا ، فهدمها ، فلما كانت الثالثة أتاه آت فى منامه فقال له : يا ليث ، ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ﴾ فأصبح وقد فلج ابن رفاعة ، فأوصى إليه ومات بعد ثلاث ...

وترجم له ابن خلكان بالأصبهانى ، ثم قال فى آخر ترجمته : ويقال إنه من قلقشندة . قلت : وما قاله ابن يونس أثبت ، ويجب الرجوع إليه لأمرين: أحدهما أنّه مصرى، وأهل البلد أخبَرُ بحال أهل بلدهم من غيرهم . والثانى أنّه قريب من زمن الليث ، فهو به أدرى ، إذ يجوز أن يكون أصلُه من أصبهان ثم نزل آباؤه قلقشندة المذكورة ، وولُد بها وسكنها فنسب إليها ، كما وقع فى كثيرٍ من النسب . وإعادة داره بهـا بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقدم ذكره فى كلام القضاعى ، دليلُ اعتنائه بشأنها ، وميلِه إليهـا . وحينئذ فلا منافاة بين النسبتين » . ج ٣ ص ٤٠٣ — ٤٠٤

وهذا الذى يجوِّزه القلقشندى ليوفِّق بين أول كلام ابن خلكان وآخره يُبعده ما نقله هو عن القضاعىّ ، من أنّ ابن رفاعة كان ابنَ عم الليث .

وابن رفاعة المقصود هنا هو الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمى الذى ولى مصر سنة ١٠٩ وتوفى وهو والٍ عليها سنة ١١٧ . والوليد بن رفاعة عربى صراح ، مِنْ فَهْم ، ليس فى نسبته خلاف ، فإذا كان الليث ابن عمه فهو أيضا عربى فهمى .

وإذا كان لابد لنا من ترجيح بين الآراء المتضاربة فى أن الليث بن سعد مولى أو عربى فإنا نميل إلى القول بأنه مولى ، اعتماداً على أقدم المصادر التاريخية التى بين أيدينا . فأبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ يقول فى كتاب الطبقات الكبير : « الليث بن سعد ويكنى أبا الحارث مولى قيس » .

وأبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٤٠ يقول فى كتاب المعارف: « الليث بن سعد، رضى الله تعالى عنه ، هو مولى لقيس ويكنى أبا الحارث » .

وقد ذكر من ترجموا الليث أنه قال :

« قال لى أبو جعفر المنصور : تَلِى لى ؟ قلت : إنى أضعف من ذلك ، إنى رجل من الموالى . قال : ما بك ضعف معى إلّا ضعف بدنك ؛ أتريد قوة أقوى منى ؟ فأما إذا أبيت فدُلّنى على رجل » .

قالوا : وكان الأمراء بمصر لا يقطعون أمراً دون الليث .

ورواية البغدادى :

« قال الليث : قال لى أبو جعفر : تلى مصر ؟ قلت لا : يا أمير المؤمنين إنى أضعف من ذلك ، إنى رجل من الموالى . فقال : ما بك ضعفٌ معى ، ولكن ضعفت نيتُك فى العمل عن ذلك لى » .

* * *

وُلِد الليث بن سعد سنة ثلاث أو أربع وتسعين ، ومولده بقلقشندة ، التى هى قرية من مديرية القليوبية بمركز قليوب ، وسمع علماء المصريين والحجازيين ، وظهر منذ شبابه فضلُه .

روى ابن حجر العسقلانى عن يحيى بن بُكير أنه قال : «سمعت شرحبيل ابن يزيد يقول : أدركت الناس فى زمن هشام بن عبدالملك وهم متوافرون، مثل يزيد بن حبيب ، وعبيد الله بن أبى جعفر ، وجعفر بن أبى ربيعة والحارث بن يزيد ، وابن هبيرة ، ومن يقدم مصر من علماء أهل المدينة ومن علماء أهل الشام للرباط ، والليث يومئذ حدَثٌ شابٌ ، وإنّهم ليعرفون فضله ويقدمونه ويُشار إليه . وقال يعقوب بن سفيان : سمعت يحيى بن بكير يقول : سمعت الليث يقول : رآنى يحيى بن سعيد الأنصارى وقد فعلت شيئاً من المباحات ، فقال : لا تفعل ؛ فإنّك إمامٌ منظور إليك . قلت : ويحيى بن سعيد تابعى من شيوخ الليث» .

وفى هذا دلالةٌ على ما تميَّز به الليث منذ صباه من فضل ونبالة .

وروى ابن حجر أيضاً عن عمرو بن خالد قال : قلت لِلَّيث بلغنى أنك أخذتَ بركاب ابن شهاب الزهرىّ . قال : نَعَم ، للعلم ، فأمّا لغير ذلك فلا، والله ما فعلته بأحدٍ قط

ونبل الليث بن سعد من أظهر صفاته ، وقد وصفه بالنبل من ترجموا له منذ عهد بعيد . فى طبقات ابن سعد

« وكان سريًّا من الرجال ، نبيلا سخيًّا ، له ضيافة » .

ورحل الليث إلى العراق أيضاً فأخذ عن علمائه ونشر علمه هناك .

ومات الليث — فيما يقول ابن سعد فى الطبقات — يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة خمس وستين ومائة ، فى خلافة المهدى » .

وكذلك يقول ابن قتيبة فى كتاب المعارف : إنه مات سنة خمس وستين ومائة .

ويقول أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ فى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها عند الكلام على ولاية موسى بن عيسى العباسى الثانية من قبل الرشيد ، فى يوم الاثنين من صفر سنة ١٧٥ :

« وتوفى الليث بن سعد يوم الجمعة للنصف من شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ، وصلى عليه موسى بن عيسى » ص ١٣٤ .

ويقول مثل ذلك الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد . وعلى هذا سائر من ترجموا لليث .

ولولا أن ابن سعد صرح بأن الليث مات فى خلافة المهدى ، والمهدىُّ

ولى الخلافة من سنة ١٦٠ إلى سنة ١٦٩ لحسبنا أن تحريف النساخ هو الذي جعل السبعين ستين . وقد ذكر المؤرخون أنّ الشافعى لقى الرشيد ، والرشيد ولى الخلافة سنة ١٧٠ .

روى عن لؤلؤ خادم الرشيد — كما ذكره ابن حجر — قال :

« جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام ، فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ! ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا ، ثم كتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه ، فلما اجتمعوا جلس لهم ، فسألهم فاختلفوا ، وبقى شيخ لم يتكلَّم وكان فى آخر المجلس — وهو الليث بن سعد — قال : فسأله ، قال : إذا أخلَى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم ، فقال : يدنينى أمير المؤمنين . فأدناه ، فقال أتكلم على الأمان ؟ قال: نعم . فأمر بإحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفَّحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ قال : أمسكْ يا أمير المؤمنين ، قل : والله . قال : فاشتد ذلك على هارون ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الشرط املك . فقال ، والله ! حتى فرغ اليمين . قال : قل إنى أخاف مقام ربى . ففعل ذلك ، فقال يا أمير المؤمنين ، فهى جنتان وليس بجنة واحدة . قال : فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال له الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع ،

وأمر له بإقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلّا بأمره ، وصرفه مكرّماً » .

وروى ابن حجر أيضاً عن الليث بن سعد أنه قال : « لما قدمت على هارون الرشيد قال لى : يا ليث ، ما صلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا إجراء النيل وصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتى الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت العين . قال : صدقت يا أبا الحارث » .

وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها ، عند الكلام على أبى الطاهر عبد الملك بن محمد الحزمى ، الذى ولى القضاء بمصر من قبل الهادى سنة سبعين ومائة :

« ان عمران الطائى صاحب البريد شفع إلى الحزمى فى خصم فكتب إليه الحزمى : ما أنت والقضاء ؟ عليك تدبيرُ دوابِّك وبراذعها وكنس زُبولها . فكتب إلى هارون يبغيه ويقول : إن الناس قد شكوه . وأتى كتاب هارون إلى داوّد بن يزيد بن حاتم ، وكان يومئذ والياً على مصر ، يأمره أن يوقف الحزمى للناس ، فأقامه داوّد فأثنى الناس عليه خيراً ، وركب الليث ابن سعد ، وعاصم بن العلاء القاصّ ، وعبد الله بن لهيعة إلى الأمير ، فأثنوا عليه ، فقال الحزمى لداوّد : قد جاءتنى فرجة فيها لباس العافية مما أنا فيه ، ولست تصل رحمى بمثل إعفائى ، وقد رضيت لك المفضل بن فضالة . فلم يزل به حتى أعفاه » .

وليس لنا بعد هـذه الدلائل إلا أن نوافق جمهرة المؤرخين على أن الليث بن سعد توفى سنة ١٧٥ وأن ما ذكره ابن سعد فى الطبقات غير صحيح.

ولما توفى الليث بن سعد فجع الناس فيه ، وشيعوا جنازته إلى قبره فى جموع زاخرة ، ودفن بالقرافة المعروفة الآن بقرافة الإمام الشافعى .

قال خالد بن عبد السلام الصدفى ـ كما فى الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية ـ :

« جالست الليث بن سعد ، وشهدت جنازته مع أبى فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها ، ورأيت الناس كلهم عليهم الحزن ويعزى بعضهم بعضاً، فقلت لأبى : يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة ! فقال : يا بنى ، كان عالما كريما ، حسن العقل ، كثير الإفضال ، يا بنى لا ترى مثله أبداً » .

ويقول على مبارك باشا فى خططه :

« وكان قبره مسطبة ، ثم بنى عليها هذا المشهد بعد سنة أربعين وستمائة. وقيل إن الذى بناه ابن التاجر » .

وقد فصل المقريزى ما كان من أمر هـذا القبر منذ كان مسطبة إلى عهده ، وقال :

« ويجتمع بهـذه القبة فى ليلة كل سبت جماعة من القراء ، فيتلون

القرآن الكريم تلاوة حسنة حتى يختموا ختمة كاملة عند السحر ، ويقصد المبيت عندهم للتبرك بقراءة القرآن عدةٌ من الناس ، ثمّ تفاحش الجمع وأقبل النساء والأحداث والغوغاء فصار أمراً منكراً ، لا ينصتون لقراءة ولايتعظون بمواعظ ، بل يحدث منهم على القبور ما لايجوز ، ثمّ زادوا فى التعدى حتى حفروا ما هنالك خارج القبة من القبور ، وبنوا مبانى اتخذوها مراحيض وسقايات ماء » .

هذا ما كان فى عهد المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ . ولسنا ندرى ما يفعل الناس اليوم عند قبر الإمام العظيم .

* * *

يعنى أكثر المترجمين لليث بأمره محدثاً وفقيها . وابن سعد يقول : « وكان ثقة كثير الحديث صحيحه وكان قد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر » . وبحسبه أن يكون من مشايخ البخارى ومسلم . أما فقهه فيقول صاحب الفهرست : « الليث بن سعد من أصحاب مالك وعلى مذهبه ، ثم اختار لنفسه ، وكان يكاتب مالكا ويسأله » .

وقال ابن حجر :

« وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق فى الطبقات أن علم التابعين من أهل مصر تناهى إلى الليث بن سعد . قال : وقال ابن وهب : ومسائل الليث تقرأ

عليه ، فرت به مسألة فاستحسنوها ، فقال رجل : ما أحسن ما قال الليث ، كأنه كان يسمع مالكاً فيجيب ، فقال ابن وهب : بل لعل مالكا كان يسمع الليث يجيب فيجيب ، والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث » .

ورواياتهم مختلفة فى المفاضلة بين مالك بن أنس والليث بن سعد ، ومن الناس من يسوى بينهما . ففى كتاب مناقب سيدنا الإمام مالك للشيخ عيسى ابن مسعود الزواوى :

« وقال ابن وهب : لقيت ثلاثمائة وستين عالما ، ولولا مالك بن أنس والليث بن سعد لضللت فى العلم » .

وإنما وقعت المفاضلة بين الليث بن سعد وبين مالك بن أنس دون غيره من فقهاء العصر لأن الليث بن سعد معدود من أصحاب الحديث . وقد ذكره ابن قتيبة فى أصحاب الحديث دون أصحاب الرأى . ومالك بن أنس يعتبر زعيم أصحاب الحديث .

وعندى أن الليث على أنه أقرب إلى سمت أهل الحديث فى زهده وورعه ، وأقرب إلى أهل الحديث فى كثرة روايته وحفظه . كان طرازاً وحده بين أهل الحديث ، وهو الذى مهَّد للشافعى ذلك المنهج الوسط بين أصحاب الرأى وأصحاب الحديث .

وروى عن الشافعى أنه قال :

« ما فاتنى أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث بن سعد ، وابن أبى ذئب » . ويروى أن الشافعى وقف على قبر الإمام الليث وقال : « لله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

كان عهد الليث عهد الدولة العباسية فى نشأتها ، وقد نهضت الدراسات الفقهية لحاجة الدولة إلى قانون شرعى منتظم ، وظهر تميز المذهبين : مذهب أهل الحجاز أهل الحديث ، الذين يعتمدون فى أحكامهم على السنن والآثار ، ويستكثرون من الروايات والأخبار ، ولا يلجئون إلى الرأى إلا قليلا ؛ ومذهب أهل العراق أهل الرأى ، الذين كان حظهم من رواية الحديث قليلاً وكان اعتمادهم على الرأى كثيراً . وكان كل من هؤلاء وهؤلاء يقصد إلى استنباط الأحكام وتدوينها ، تيسيراً وتنظيما لأمر القضاء وسياسة الدولة .

وقد غلب على أهل الحديث الاهتمام بأن تكون سياسة الناس وأعمالهم موافقة لظواهر النصوص من غير كبير عناية بأسرار الأحكام ومرامى النصوص .

أما أهل الرأى فشغلهم تفريع المسائل وفرض الفروض ليجدوا لها حلاً بدقيق النظر ولطف الحيلة .

وجاء الليث بن سعد فجعل همَّه أن يوجه الفقه وجهةً جـديدة تخرجه من دائرة التخصص بخدمة النظم الحكومية ، وتخلّصه من تساهل أهل الرأى وتشدد أهل الحديث .

وفى كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله :

« وكان الليث بن سعد كثيرًا ما يقول لأصحاب الحديث: تعلموا الحِلم قبل العلم » .

وقد رأينا كيف أفتى الليث بن سـعد هارون الرشيد فى رد طلاقه ، مراعيا فى ذلك الناحية الروحية من قبل أن يراعى ظواهر الأحكام .

وفى كتاب الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء :

« ... أخبرنى يحيى بن عبد الله بن بكير قال : سمعت الليث بن سعد يقول : كنت أسمع بذكر أبى حنيفة وأتمنى ان أراه ، فكنت يوماً فى المسجد الحرام فرأيت حلقةً عليها الناس مُتقصفين ، فأقبلت نحوها فرأيت رجلاً من أهل خراسان أتى أبا حنيفة فقال : إنى رجل من أهل خراسان كثير المال ، وإن لى ابناً ليس بالمحمود وليس لى ولد غيره . فذكر نحوه سُوءا وزاد ، قال الليث : فوالله ما أعجبنى قوله بأكثر مما أعجبنى سرعة جوابه » .

والقصة المشار إليها أن الرجل قال يا أبا حنيفة ، قصدتك أسألك عن أمر قد أهمنى وأعجزنى ، قال : وما هو؟ قال : لى ولد ليس لى غيره ، فان

زوّجته طلّق ، وإن سرّيته أعتق ، وقد عجزت عن هـذا فهل من حيلة ؟ فقال له للوقت : اشترِ الجارية التي يرضاها هو لنفسك ثمّ زوِّجها منه فإن طلّق رجعت مملوكتك إليك ، وإن أعتق أعتق ما لا يملك .

وإذا كان الليث قد أعجب بقول أبي حنيفة وبسرعة جوابه فما أظنه كان يرى أن يجيب هذا الجواب ، ولا أن يسرع ذلك الإسراع .

والمتتبع لما يرويه الليث من الأحاديث يجد فيها كثيرًا مما يتعلق بحسن السلوك وكمال الخلق ، إلى جانب ما يتعلّق بأحكام الحـدود والمعاملات . وقد جمع ابن حجر أربعين حديثا من عوالي الحديث مرويّة عن الليث منها :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى إذا كان ثلاثة نفر أن يتناجى اثنان دون واحد .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يُقيمَنّ أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه .

ومنها : أن امرأة وُجدت في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتولةً ، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، وامرأة الرجل راعيـة على

بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً كان يتصدق بالنبل في المسجد ألا يمر بها إلا وهو آخذ بنصولها .

ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداه : إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه .

وهذا الذى نهض به الليث من توجيه الحركة الفقهية إلى الناحية الخلقية الروحية ، كان من حقه أن يجعل الليث معدوداً في أئمة الصوفية الذين نهضوا بالتصوف نهضته الأولى ، ونهضة التصوف الأولى كانت أخلاقية .

ومن عجب أن عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وهو مصرى من قلقشندة بلد الليث ، لم يذكر مواطنه في كتابه الطبقات الكبرى ، وهو قد ذكر أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وابن حنبل ، وغيرهم ممن لم يكونوا أقرب إلى التصوف من الليث .

ولم يقف علم الليث عند حد الفقه والحديث ، بل كان محيطاً بأنواع

المعارف المتداولة فى ذلك الزمن . وفى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ :

« وقال يحيى بن بكير : ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة » .

بل هو قد كان فوق ذلك مؤرخاً حجة خصوصاً فيما يتعلق بفتح مصر وتاريخها الإسلامى إلى عهده . بل له روايات تتصل بتاريخ مصر قبل الإسلام كروايته فى منابع النيل التى ذكرها ياقوت فى معجم البلدان ، وهى رواية إن لم يدون لنا حقيقة تاريخية ثابتة فهى تدون أسطورة تمثل صورة التفكير فى بعض العصور .

وفى كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها للكندى روايات عن الليث كثيرة ، فى ولاة مصر وقضاتها ، وما جرى من الأحداث فيها منذ فتحها .

وفى كتاب معجم البلدان لياقوت روايات عن الليث عديدة فى تحقيقات جغرافية ولغوية .

وكل ذلك يدل على سعة اطلاع الليث وتميّزه فى فنون المعارف .

وقد ضاعت معارفه فيما ضاع من آثار الأقدمين إلّا ما نجده منثوراً فى كتب مختلفة .

واستيفاء البحث فى ترجمة الليث يقتضى جمع هـذه المنثورات وتمحيصها وترتيبها . ونرجو أن ينشط لهذا البحث النافع بعض أهل الجدّ من شبابنا .

* * *

لم يتولّ الليث شيئاً من أمر الحكم ، وقد عفّ عن الولاية وعفّ عن القضاء . وفى كتاب حسن المحاضرة :

«قال ابن كثير : وقد حكى بعضهم أنه ولّى القضاء بمصر»، وهو غريب على أن الليث بن سعد كان من جلال القدر ورفعة المنزلة بحيث يلجأ إلى رأيه ولاة مصر وقضاتها .

قال الكندى فى تاريخ القضاة :

سمعت بكر بن منصور يقول: قدم علينا كتاب أمير المؤمنين مروان فى حوثرة ابن سهيل : أن قد بعثت إليكم رجلاً أعرابياً بدوياً فصيح اللسان ، من حاله ومن حاله كذا ، فاجمعوا له رجلاً فيه مثل نصاله ، يسدّده فى القضاء ويصوبه فى النظر ، ويسدّد فى كذا وكذا قال بكر بن منصور : فأجمع الناس كلهم يومئذ على الليث بن سعد ، وفيهم معلّماه يزيد بن أبى حبيب وعمرو بن الحارث » .

وفى حسن المحاضرة :

« وقال الذهبى فى العبر : كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث

وكان إذا رابَهُ من أحد شيء كاتب فيه فيعزل ؟ وقد أراده المنصور أن يولّيه إمرة مصر فامتنع » .

وكانت مشورة الليث ذات أثر ظاهر في سير الحكم وفي تنظيمه .

ذكر ابن إياس في تاريخ مصر : في حوادث سنة ٩٢٨ :

« وقيل إن الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه هو الذي دوّن ديوان الأحباس في أيامه وأفرد للرزق الأحباسية ديواناً يختص بها دون ديوان الجيش ، واستمر ذلك باقياً من بعد الإمام الليث إلى الآن ، حتى جاء فخر الدين بن عوض فنقض ذلك الأمر الذي كان على جهات البر والصدقات وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة ، وأبطل ما كان صنعهُ الليث ابن سعد رضي الله عنه » ج ٣ ص ٣٠٤

وفي كتاب تاريخ مصر وولاتها وقضاتها للكندي عند الكلام على ولاية موسى بن عيسى بن موسى العباسي الأولى بمصر في سنة إحدى وسبعين ومائة :

« ثم أذن موسى بن عيسى للنصارى في بنيان الكنائس التي هدمها على بن سليمان ، فبنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، وقالا : هو من عمارة البلاد . واحتجا أنّ عامة الكنائس التي بمصر لم تبن إلّا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين .

***

بقي جانب من جوانب الليث بن سعد لم نعرض له وما أحسب أحداً من المترجمين لليث أغفلـه ، ذلك هو أمر غناه ، فقد كان الليث موفور الغنى وكان سخياً جواداً ، وكان زاهداً ورعاً . واختلفوا في تقدير ثروته ، فقائل ان الليث بن سعد كان يستغل خمسة آلاف دينار في كل سنة ، وقائل أكثر من ذلك ، حتى بلغ بها بعضهم ثمانين ألف دينار ، بل قال بعضهم إن دخل الليث بن سعد كان مائة ألف دينار في كل عام ، وكلهم متفقون على أن الليث لم تجب عليه قط زكاة ، بل يقول بعضهم: كانت تأتي عليه السنة وعليه دين . كان منفقاً يهب الألوف . وأعطى ابن لهيعة ألف دينار ، وأعطى مالك بن أنس ألف دينار ، وأعطى منصور بن عمـار ألف دينار وجارية تساوى ثلاثمائة دينار .

وجاءت امرأة إلى الليث فقالت : ياأبا الحارث إن ابناً لي عليـل ، واشتهى عسـلاً . فقال : ياغلام ، اعطها مرطاً من عسل . والمرط عشرون ومائة رطل .

كانت لليث ضياع في الجيزة وفي غير الجيزة ، وكانت له دور في الفسطاط وفي قلقشندة ، وكانت له فلك تجري في البحر بأمره . وفي تاريخ بغداد :

« سمعنا أبا رجاء قتيبه يقول قفلنا مع الليث بن سعد من الإسكندرية

وكان معه ثلاث سفائن: سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه .

وفى كتاب الخطط لعلى مبارك باشا[1] :

« وكانت له قرية بمصر يقال لها الفرما ، مهما حمل إليه من خراجها يجعله صُرَرًا ويجلس على باب داره ويُعطى من مرّ به من المحتاجين صرة صرة حتى لا يدع من ذلك إلا اليسير .

وحمل إلى بغداد ليفتى الرشيد فى زوجته زبيدة ، وأمر له بخمسة آلاف دينار ، فردها وقال : ادفعها لمن هو أحوج منى . وقال يحيى بن بكير : كانوا يزدحمون على باب الليث فيتصدّق عليهم فلا يترك أحداً . وتصدق وأنا معه على سبعين بيتاً من الأرامل ، ثم بعث غلاماً له بدرهم فاشترى به خبزا وزيتاً ثم رجعت إلى بابه فرأيت عنده أربعين ضيفاً فأخرج إليهم اللحم والحلوى ، فلما أصبح قلت لغلامه : بالله عليك لمن الزيت والخبز ؟ قال : لسيدى . فتعجبت من كونه يطعم أضيافه اللحم والحلوى وهو يأكل الخبز والزيت .

ومن مناقبه أن رجلا من أهل مصر صُودر فى أيامه ، ونودى على داره فبلغت أربعمائة درهم ، فاشتراها الليث ، وبعث يونس بن عبد الأعلى الصدفى يأخذ المفاتيح ، فوجد فى الدار أيتاماً وعائلة ، فقالوا : بالله عليك اتركنا إلى

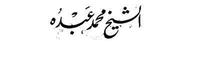
(١) انظر (قلقشندة) فى الخطط التوفيقية ج١٤ ص ٨ .

الليل حتى ننظر قرية نذهب إليها . فجاء إلى الليث وأخبره بالقصة فبكى وقال له : عُد إليهم وقل لهم : الدار لكم ، ولكم ما يقوم بكم فى كل يوم » .

وكما كان الليث بن سعد إماماً فى العلماء وعظيماً فى الكرماء ، فقد كان ابنه شعيب بن الليث عالماً كريماً وهو مدفون إلى جوازه . وفى خطط على مبارك باشا : « قال ابن أبى الدنيا حج شعيب بن الليث سنة فتصدق بمال عظيم ، فمر عليه رجل من العلماء فسأل عنه فقيل له هذا العالم الكريم ابن الكريم . ولما دخل دمشق جاءه رجل وقال له : إن عبد أبيك معى ، لأبيك تجارة ألف دينار وأنا الآن فى الرق ، فخذ مال أبيك واعتقنى إن شئت . فأعتقه وأعطاه المال . قال الخطابى : فلا أدرى أيهما أحسن : العبد فى إقراره بالمال والرق ، أم السيد حيث أعتقه وأعطاه المال » .

* * *

هذه نظرة عجلى فى حياة عظيمة لإمام من أسلافنا عظيم . وأرجو أن أكون وفقت لتوجيه الناشئين إلى درس سيرة من أكرم السير سيرة الرجل الذى ذكره ابن حبان فى الثقات فقال : « كان من سادات أهل زمانه ، فقهاً وورعا ، وعلماً وفضلا وسخاء » .


الشيخ محمد عبده

الشيخ محمد عبده

وجهته في الإصلاح الديني [1]

— ١ —

الدور الأول

قد يكون خير ما نحيّي به أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده في يوم تذكار وفاته[2] هو أن ندرس جانباً من جوانب حياته العظيمة .

ونختار وجهته في الإصلاح الديني ؛ لأنها مظهر شخصيته ، ومركز الدائرة في تفكيره وعمله .

كان الشيخ محمد عبده مصلحاً يسعىٰ للتوفيق بين العقل والشرع ، وقد قرر ذلك من رثوه ومن ترجموا لحياته :

---

(١) نشرت هذه المقالات الخمس في جريدة السياسة في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٤١ (١١ يوليه سنة ١٩٢٣) إلى ٣ ذي الحجة سنة ١٣٤١ (١٧ يوليه سنة ١٩٢٣)

(٢) توفي الأستاذ برمل الإسكندرية في الساعة الخامسة من مساء الثلاثاء ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ (١١ يوليه سنة ١٩٠٥ م) .

قال إسماعيل صبري :

ووفقت بين الشرع والعقل بعد ما قد اعتقد الإلفان أن لا تلاقيا

وقال حفني ناصف :

ويذكِّرُ العلمــاء أن لا يُغمضوا عمــا اقتضاه زمانهم أبصارا

ويظل بالإصلاح مُغْرًى ، كلّما وجد السبيلَ إلى صلاحٍ سارا

وقال حافظ إبراهيم :

ووفَّقت بين الدين والعلم والحجا فأطلعت نُوراً من ثلاثِ جهاتِ

وقالت باحثة البادية :

والعلم والدين للجنسين مُطَّلَبٌ فليس يختص جنسٌ منهما بهما

فنحن في الحزن شاطرْنا الرجالَ كما في الاستفادة شاطرناهم قُدُما

وقال جورجي زيدان في ترجمة الشيخ ، في الجزء الأول من كتاب « تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » : —

« فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة الإسلام إلى الإصلاح انقسم المسلمون إلى فئتين ، فئة ترى بقاء القديم على قدمه ، وهم حزب المحافظين ، وفئة ترى حل القيود القديمة وإطلاق حرية الفكر ، والرجوع إلى الصحيح من قواعد الدين ، ونبذ ماخالطه من الاعتقادات الدخيلة — وكان رحمه الله زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه ، وبكل جارحة من جوارحه

وكانت مساعيه ترمى إلى غرضين رئيسين : الأول تنقية الدين الإسلامىّ من الشوائب التى طرأت عليه ، والثانى تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث ؛ ليستفيدوا من ثمار مدنيته علمياً وصناعياً وتجارياً وسياسيا » .

ونحن نرجع إلى الأستاذ نفسه فى بيان وجهته فى الإصلاح الدينى نقلاً عن المجلد الثامن من المنار :

« وارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهمُ الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوعُ فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لتردّ من شططه وتقلّل من خلطه وخبطه ؛ لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى . وأنه على هذا الوجه يعدّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل .

وكل هذا أعدّه أمراً واحداً ، وقد خالفت فيه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومَن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم » .

وإذا تتبعنا دعوة الأستاذ إلى الإصلاح الدينى منذ ظهورها فى آثاره المكتوبة نجد بدايتها فى الفصول التى نشرها فى جريدة الأهرام سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م بعنوان (العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية) .

فى ذلك العهد كان التعليم النظامى انتشر فى وادى النيل ولفت الناس حتى أهل الأزهر إلى العلوم الحديثة

ويبين لنا منزلة هذه العلوم يومئذ فى نظر الأزهريين ما نسخه لنا بعضُ أصحابنا من فتاوى المرحوم الشيخ الأنبابى المخطوطة بمكتبته ، ونصه « سئل حفظه الله تعالى بما صورته : ما قولكم رضى الله عنكم — هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية ، مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنه بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ... الخ ؟ »

ولا نريد أن نطيل بذكر هذه الفتوى المؤرخة غرة ذى الحجة سنة ١٣٠٥ هـ فبحسبنا أن نعرف أن تعلم الرياضيات والطبيعيات كان محتاجاً فى ذلك الزمن إلى رخصة من شيخ الإسلام .

أما الشيخ محمد عبده فقد كان اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى منذ سنة ١٢٨٨ هـ سنة ١٨١٨ م ، ولم يكن نظر السيد إلى هذه العلوم كنظر الأزهريين ، لذلك كان يدرس مدة مقامه بمصر المنطق والفلسفة والهيئة فى منزله لطلاب الأزهر ، دون أن يفكر فى أن الأمر يحتاج إلى استفتاء وإفتاء .

وفى العدد التاسع من السنة الثانية من مجلة « كاوه » الفارسية التى تنشر فى برلين ، أن السيد جمال الدين ورد على بوشير فى سنة ١٣٠٣ ونزل

فى منزل الحاج أحمد خان ، وأقام ثلاثة أشهر عنى فيها بتعليم ابنه محمد على جان المقلب بسديد السلطنة . وكان السيد يُشير على تلميذه بقراءة كتب فى الجغرافيا وعلم الهيئة ، وسيرة نابليون ، وجُلستان للسّعدى ، وكتاب كليلة ودمنة ، وجرائد مصر .

لا جرم كان من أثر التصادم فى نفس الشيخ محمد عبده بين ما أحدثته دروس جمال الدين وأثر الوسط الأزهرى ، أن كتب بحماسة تنوء بأسلوبه الغض ، مقالَ الأهرام الذى يقول فيه :

فمن أعجب ما رأيناه فى هذه الأيام ، أن بعض طلبة العلم الكرام . قد حرّكتْ إلى المعالى همّته ، فأخذ فى دراسة بعض الكتب المنطقية والكلامية ... فلما سمع بذلك بعضُ أحبابه وأصفيائه وأقربائه ... اهتز واضطرب ، وعجب كل العجب ، وأخذه الحزن على ذلك الطالب ما شاء الله أن يأخذه ، وأوسع لذلك الطالب النصيحة ويالها من نصيحة أى فضيحة ! قائلاً كيف تدرس علوم الضلالات حتى تقع فى الشبهات ... وليت شعرى إذا كان هذا حالنا بالنسبة إلى علوم قد أرضعت ثدىَ الإسلام وغُذيت بلبانه وربت فى حجره .. فما حالنا بالنسبة إلى علوم جديدة مفيدة هى من لوازم حياتنا فى هذه الأزمان .. فعلينا أن ننظر فى أحوال جيراننا من الممالك والدول . وها نحن بعد النظر لا نجد سبباً لترقّيهم فى الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف

والعلوم فيما بينهم ... فإذن أول واجب علينا هو السعى بكل جد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا »

و بعد هذا الفصل المنشور فى جريدة الأهرام لعامها الأول نجد للشيخ محمد عبده فى الجريدة الرسمية أيام توليه تحريرها سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م مقالاً فى حكم الشريعة فى تعدد الزوجات ، جاء فيه :

« أفبعد الوعيد الشرعى وذلك الإلزام الدقيق الحتمىّ ، الذى لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلا ، يجوز الجمع بين الزوجات عنـد توهّم القدرة على العدل فضلاً عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنـا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلّا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتيّة ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة الشرع الشريف ؟ ! » .

ونجد أيضاً للأستاذ فى الجريدة الرسمية كلاماً فى البدع كالأذكار المصحوبة بالطبول ، والاجتماعات المقرونة بالحضرات ، وكبدعة الدوسة التى يقول فيها :

« وهى أن ينطرح الناس على الأرض مصطفين أحدهم إلى جانب الآخر ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهى إلى آخرهم ...

خصوصاً وأن الدوسة وأمثالها من أنواع البدع لم يرد لهـا نوع مشابه ولا مماثل فى السنة النبوية الغراء ، حتى يلتمس أحـد موافقتها ولو بطريق

التشبيه على بعد . وأما دعوى أنها من الكرامات فهى باطلة عند أهل السنة والجماعة ؛ فإنهم نصوا فى كتب التوحيد على أنّ من شروط الكرامة أن لا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته . فإن صارت كذلك كأكل النار ، وضرب السلاح ، والدوسة ونحوها ، التى يتعاطاها كل من يأخذ عهداً على طريقة الرفاعى أو السعدى ، أو يتولى مشيخة السعدية أيّاً كان ، فلا تكون من قبيل الكرامة ، بل تعد من الحيل المذمومة » .

هذه هى باكورة الإصلاح الدينى الذى توجهت له همة الأستاذ فى بداية أمره ، وهو نوع من الإصلاح العملى ، مرجعه إلى نصر العلوم الحديثة على خصومها من أهل الدين ، وتهذيب نظام العائلة بوضع قيود لتعدد الزوجات ، ومحاربة البدع التى ليست إلا صوراً دينية شوهاء .

وجدير بالعهد الذى كان الخديوى إسماعيل يدفع فيه الأمة دفعاً فى سبيل المدنية الحديثة القائمة على العلم والجمال أن يلهم نفساً صالحة كنفس الشيخ عبده السعىَ فى تذليل ما يقوم بين يدى العلم من العقبات ، وإزالة ما يشوّه حياتنا من البدع المنسوبة إلى الدين .

— ٢ —

الدور الثـانى

حدثت الثورة العرابية ونفى الأستاذ الشيخ محمد عبده من مصر، ثم التقى بالسيد جمال الدين الأفغانى فى باريس ليصدرا جريدة العروة الوثقى معاً فى سنة ١٣٠١ ﻫ ١٨٨٤ م

وكانت حركة الإصلاح التى يحاولها جمال الدين مستعيناً بتلميذه ترمى إلى تخليص دول الاسلام من النفوذ الأوربى مادياً وسياسيه ، والعمل على رفيها الداخلى المستقل بايجاد النظم الدستورية الحره فيها ثم جمع شتاتها ممالك مستقلة متحده تحت لواء خليفة واحـد ، مكونة لدولة قوية قادرة على صد العدوان الخارجى

قال صاحب مجلة المنار فى ترجمته للشيخ محمد عبده فى المجلد الثامن :

« حدثنى أنه قال للسيد فى أوربا إن هـذه السياسة لا يأتى منها خير لان تأسيس حكومة إسـلامية عادلة مصلحة لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط .

فخير لنا أن نذهب معاً إلى محل من مجاهل الأرض لا سلطان للسياسة

فيه ، ويحاول تربيــة أولاده على ما يحب ، فإذا تيسر لنا تربية عشرة رجال يبذلون أنفسهم لخدمة الأمة لا يصدهم عن ذلك الجثوم فى وطن ، والإخلاد إلى الأهل والسكن ، بل يكون همهم الضرب فى الأرض لتربية مثلهم على ما ربوا عليه ، فلا يبعد أن يربى الواحـد منهم عشرة ، فيكون لنا فى زمن قريب مائة رجل يعملون للإسـلام ، والرجال هم الذين يعملون كل شىء ». فقال السيد : إنما أنت مثبط ، قد شرعنا فى عمل فلابد من المضى فيه حتى يتم أو نعجز » .

ويدل هذا على أن الشيخ محمـد عبده لم يكن مملوء النفس بالأمل فى الإصلاح السياسى القائم على تحريك العواطف الدينية ، هذا النوع من الإصلاح الذى كان ملء جوانح السيد جمـال الدين ، ما يسعى له بتأليف الجمعيات السرية فى بلاد الإسلام المختلفة ، وبإصدار جريدته وبثّ أعوانه .

على أن فـكرة أستاذنا فى الإصلاح الدينى التى كانت قبل عهد العروة الوثقى ، محلّية تلهمها حاجات البلاد المصرية ، استحالت إلى فـكرة أكبر وأشمل بحـكم النظر فى شؤون المسلمين فى الأقطار المختلفة ، وتعرّف أسباب انحطاطهم ، والإلمام بجملة عقائدهم وآثارها فى أعمالهم .

كل ذلك مع ما يمده من فطرة شيخنا وتربيته الدينية وجّهه إلى دعوة

الإصلاح الديني بمعناها الكامل ، التى بلغت شأوها منذ دخل الأزهر وتقلد الإفتاء عام ١٨٩٩ م ، فأصبح للناس إماماً .

ويقول الأستاذ فيما كتبه رداً على هانوتو :

« مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال : إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة . . . وهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها ؛ فإن إتيانهم من طريق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من موادّه شىء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً . وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بيناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلمَ العدولُ عنه إلى غيره ؟ » .

فالشيخ يعتقد أن المسلمين ابتدعوا فى عقائد دينهم ما ليس منها وأخطؤوا فى فهم النصوص الدينية ، فكان لا بد لدعوته الإصلاحية من تمحيص

العقائد وتفهيمهم النصوص على وجهها . لذلك عنى بمدارسة التوحيد ، والتأليف فيه ، واشتغل بتفسير القرآن الكريم درساً وكتابة .

يرى الأستاذ أن رد الناس إلى قواعد الدين وأحكامه على ما كان فى بدايته ممحصاً مما عرض عليه هو خير ما يوجههم إلى منتهى الكمال الإنسانى ويسمو بهم عن ضروب الشحناء والمنازعات ، ويمحو بينهم أسباب الفرقة والخلاف .

يقول الأستاذ فى كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » :

« الدين دين الله ، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره ، أما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين ، فهو لا يتغيّر ، إيمان بالله وحده وإخلاص له فى العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم بعضاً فى الخير ، وكفّ أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا » .

يقول الأستاذ فى كتاب كتبه إلى قَسّ إنكليزى خطب فى لندرة مبيناً محاسن الإسلام :

« ونستبشر بقرب الوقت الذى يسطع فيه نور العرفان الكامل ، فتنهزم له ظلمات الغفلة ، فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد ، وتعانقتا معانقة الألفة فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التى طالما انزعجت لها أرواح الملتين . . .

وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة ، وصحفاً متصادقة ، يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين ، فيتم نور الله ويظهر دينه الحقُّ على الدين كله » .

كان الشيخ مؤمناً بنجاح دعوته إيماناً لا يزعزعه ريب ، فهو يقول فى كتاب الإسلام والنصرانية :

« قد وعد الله بأن يتم نوره ويظهره على الدين كله فسار فى سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواماً ، ثم انحرف به أهله عن سبيله وصاروا به إلى ما يرون ونرى ، ولن ينقضى العالم حتى يتمَّ ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معاً على تقويم العقل والوجدان . . . ولا بد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم . . . وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون ، وتبعهم الجامدون القانطون . وليس بينك وبين ما أعدك به إلّا الزمان الذى لا بد منه فى تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الأعوج » .

ومن أجل ثقة الأستاذ بدعوته وإيمانه بأنها حق يؤيده البرهان ، وأنها سبب سعادة وصلاح للبشر لا شقاق وخصام . كان ينعى على المسلمين ولعهم بالتكفير والتفسيق ، ويرى ذلك من وهن عقائدهم وضعف المزاج الدينى فيهم ، ويبرئ الدين نفسه من تلك الجلة .

يقول فى كتاب الإسلام والنصرانية :

هلَّا ذهبت من هذين الأصلين إلى ما اشتهر بين المسلمين ، وعرف من قواعد دينهم ، وهو : إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر . فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه ؟...

لا أكاد أخطئ القارئ إذا زعم أن المسلم استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق ، من فضل ما علّمه جيرانه إذا كانوا يقولون هرتقة وتهرتق وهو هرتوقه ، أو ما ماثل ذلك ؛ او زعم ان قد فشت فى المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوَى من أهل الملل المتشددة ... متى أولع المسلمون بالتفكير والتفسيق ، ورمْيِ زيد بأنه مبتدع ، وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فى ما سبق إلى مبدأ هذا المرض ، ونقول الآن : إن ذلك بدأ فيهم عندما بدأ الضعف فى الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله ... وتولّى شؤون المسلمين جهالُهم وقام بإرشادهم فى الأغلب ضُلّالهم . فى أثناء ذلك حدث الغلوّ فى الدين ، واستعرت نيران المداولات بين النظّار

فيـه ، وسهل على كلٍّ منهم لجهله بدينه أن يرمى الآخر بالمروق منـه لأدنى سبب .

وكلما زادوا جهلاً بدينهم ازدادوا غلواً فى الباطل به ودخل العلم والفكر والنظر (وهى من لوازم الدين الإسلامى) فى جملة ما كرهوه ، وانقلب ما كان واجباً فى الدين محظوراً فيه »

ويقول الأستاذ فى تفسير سورة العصر :

« ومن النـاس من إذا سألته فى أمر يتعلق بعقيدة من العقائد فاجأك بقوله : لا تقل ذلك فتكفر أو تعتزل أو ما أشبه ذلك ، وهو سلاح يتخذه المرتابون فى عقائدهم تُرساً يدفعون به ما يخشون من الشُّبه التى تزلزل عقائدهم ، ولكن هذا الدفاع يدلُّ على ارتياب صاحبه فى عقيدته قبل الدفاع فإن صاحب اليقين يرتاح إلى كل ما يسمع ، فإن وجد عنـد مخاطبه شبهة أمكنه أن يزيلها من نفسه . وتلك الطريقة من طرق الدفاع عن العقائد هى التى أغلقت دون المسلمين أبواب العلم ؛ فإنه كلما لاح نور إلٰهى فى يقين الطالب يهديه إلى طلب الحق وجد من هذه الكلمات كالاعتزال والفلسفة ما يُخمد ذلك النور فيه » .

— ٣ —

الدور الثانى أيضاً

تنتظم دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح الدينى ـ كما تبين مما سردناه آنفاً ـ أموراً ثلاثة :

ا ـ تحرير الفكر من قيد التقليد .

ب ـ اعتبار الدين من موازين العقل البشرى ، وعدّه صديقاً للعلم .

حـ ـ فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .

ونحن نتناولها بالبحث على هذا الترتيب :

ا ـ تحرير الفكر من قيد التقليد

يقول الأستاذ فى كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » :

« فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح . . بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج » .

يريد الأستاذ بالإيمان الصحيح اليقين ، وإليك ما يقوله في اليقين نقلاً من تفسيره سورة « العصر » :

« وليس الإيمان كذلك مجرد ما يسميه الناس اعتقاداً وإن كان بمحض التقليد لا عمل لعقل ولا لوجدان فيه . وإنما المراد منه ذلك التصديق المقرون بطمأنينة النفس وخضوع القوى لحكم ما آمن به ...

أما هـذا الإيمان الذي يتلقاه الناس من أفواه آبائهم فينشأ ابن المسلم لا يفهم معنى لما يعتقد أو يقول أبوه ، وإنما ينطق كما ينطق ، وتأخذه الحمية لما يراه يحمى له ، لا يفهم لذلك معنى ، ولا يجد لنفسه فيه بصيرة كما ينشأ ابن النصراني أو ابن اليهودي أو ابن المجوسي على مثل ذلك ، فهو مما لا يعتد الله به » .

ويزيده بياناً أيضاً قول الشيخ في رسالة التوحيد :

« أنحى الإسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر ... ونبّه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مُسمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان . وإنما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيّان ... بهذا وما سبقه تمّ للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حُرم منهما ، وهما : استقلال الإرادة ، واستقلال الرأي والفكر ، وبهما كملت إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التي فطر عليها » .

يقرر الأستاذ أن لا نجاة إلا بالإيمان المبنى على النظر وقيام الدليل ، ويقول فى تفسير سورة العصر : « فإنه لا يقين مع التحرج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها ، حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تقييد ، كما هدانا الله إلى ذلك فى كتابه ؛ فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حدّ » .

ومعنى هذه الحرية التى يجعلها الأستاذ للنظر ، يتبيّن على وجه واضح مما سنذكره .

قال فى رسالة التوحيد : « وتقرّر بين المسلمين كافّة ـ إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه ـ أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على إرسال الرسل ... »

قال فى حاشيته على شرح الدوانى على العقائد العضدية ، التى كتبها سنة ١٢٩٣ هـ ولكنها لم تطبع إلا فى آخر حياته سنة ١٣٢٢ هـ : « والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل ، أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود ، ثم منه إلى إثبات النبوّات ، ثم يأخذ كل ما جاءت به النبوات بالتصديق والتسليم » .

وفى رسالة التوحيد :

« وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدّق بجميع ما جاء به ، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه ، والنفوذ إلى حقيقته، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ؛ فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به . فإن جاء ما يوهم ظاهرُه ذلك فى شىء من الوارد فيها ، وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد ، وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض إلى الله فى علمه » .

والمفهوم من هذا القول أن على العقل أن يذعن لما ثبت فى الدين وان لم يفهمه . لكننا نجد فى رسالة التوحيد نفسها قولاً آخر هو :

« من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهمُ أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول ، وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها ، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت ، وثواب وعقاب، بحيث لا ينقص تأويلُه شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقض شيئاً من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمناً حقاً ... ، والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر ، بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل » .

وهذا القول الثانى وإن كان أدنى إلى حرية النظر التى يهتف بذكرها الأستاذ كثيراً فإن وجه التفريق فيه بين الشرائع العملية وأخبار الغيب ليس ببيّن .

ب — اعتبار الدين من موازين العقل وعده صديقاً للعلم

يرى الأستاذ أن وظيفة الدين غير وظيفة العلم ، فلا موضع لتصادمهما وهما حاجتان من حاجات البشر قد لا تغنى إحداهما عن الأخرى .

وهذا قوله فى رسالة التوحيد :

ولكنها — أى الحاجة إلى الرسل — حاجة روحية ، وكل ما لامس الحسّ منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكاتها ، أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين .

أما تفصيل طرق المعيشة ، والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلّا من وجه العظة العامة ، والإرشاد إلى الاعتدال فيه … وإنما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى ، كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لا بد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلاً ،

كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات » .

ولا يرى الأستاذ أن من عمل الدين تمحيص الحقائق العلمية ، والتعرض لما هو من أبحاث الفنون . وقد بين ذلك في قوله في رسالة التوحيد :

« ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات ، فليس ما جاءوا له تعليمَ التاريخ ولا تفصيلَ ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيانَ ما اختلف من حركاتها ولا ما استكنّ في طبقات الأرض ، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموّها ، ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابق في الوصول إلى دقائقه الفهوم ؛ فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . أما ماورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا من أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض ، فإنما يقصد النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره و بدائعه » .

وبذلك التمييز بين وظيفة الدين ووظيفة العلم ، لم يترك الأستاذ سبباً للعداوة بينهما ، ولا نقص من قيمة واحدٍ منهما ، ثم لم يكتف بهذا ، بل زاد من مظاهر عطفه على العلم فقال في رسالة التوحيد أيضاً : وعلى كل حال لايجوز

أن يُقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان.

بل يجب أن يكون الدين، باعثاً لها على طلب العرفان، مطالباً لها باحترام البرهان، فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديها من العوالم، ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحدّ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجنى عليه جناية لا يغفرها له ربُّ الدين».

— ٤ —

وصل بنا البحث إلى الغرض الثالث من أغراض الإصلاح الإسلامي التي توخاها المصلح العظيم الشيخ محمد عبده، وهو من أجلها خطراً وأكبرها أثراً؛ لاتصاله بأسس الدين المقدسة وطريقة فهمها، ولظهور مذاهب الشيخ ومنازعه في هذا الباب بأوضح من ظهورها في سائر أبواب الإصلاح الديني

ج — فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى

الدين الإسلامي في مذهب الشيخ محمد عبده على ما ذكره في رسالة التوحيد: — «هو الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم، وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل، ولا ميل مع الشيع».

فالأستاذ يرى أن الإسلام هو المبادئ التى جاء بها نبيه وثبت ورودُها عنه على سذاجتها، بل يرى الأستاذ ذلك فى جميع الأديان، فيقول فى كتاب الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية :

« عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا، يجب أن يؤخذ ممحصاً مما عرض عليه ... فاذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لاتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله فيؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين، ومن تلقوه على سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه ».

ومنابع الدين الإسلامى فى سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه مبينة فى قول الشيخ فى رسالة التوحيد :

« بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام — بالدليل القاطع على ما بينا — وأنه إنما يخبر عن الله تعالى، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والإيمان بما جاء به . ونعنى بما جاء به، ما صرح به فى الكتاب العزيز، وماتواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ...

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ... أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدّق بصحة روايتها ... والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئاً وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم

حدَّث به أو قرّره فقد طعن فى صدق الرسالة ، وكذّب بها . ويلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر وعُلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل » .

الكتاب العزيز وقليل من السنة العملية هذا هو الأصل الذى ينبغى أن يرد إليه الدين الإسلامى فى مذهب أستاذنا . ولما كان الثابت بالتواتر من السنة قليلاً فقد صرح الشيخ فى تفسير سورة الفاتحة : « انه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين » .

لا غرو مع هذا أن تتوجه عزيمة الأستاذ فى أخريات حياته إلى العناية بتفسير القرآن عناية تكاد تستغرق كل مجهوده فى الإصلاح الدينى .

قال جورجى زيدان فى ترجمته للأستاذ فى كتاب « تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر »

« وأما تنقية الدين الإسلامى من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها أنه أطلق لفكره الحرية فى تفسير القرآن ، ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التى يحرم الأئمة تبديل شىء منها .

فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود ، ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر ، فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختبار ، ولنواميس العمران ، على ما بلغ إليه هذا العلم

إلى الآن من مطابقته لأحكام العقل وأصول الدين ، كما فعل النصارى فى تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد ، وهو أوعر مسلكاً فى الإسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه .

والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم، فيعلقون على تفسيره أهمية كبرى ؛ لأنه مرجع الفقه وغيره من الأحكام الشرعية والسياسية » .

يدعو الشيخ محمد عبده جميع الناس إلى فهم القرآن ، وأخذ دينهم منه، فيقول فى مقدمة التفسير المطبوعة مع تفسير سورة الفاتحة :

« خاطب الله بالقرآن من كان فى زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب إليهم لخصوصية فى أشخاصهم ، بل لأنهم من أفراد النوع الإنسانى الذى أنزل القرآن لهدايته .

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ . فهل يعقل أنه يرضى عنا بأن لا نفهم قوله هـذا ، ونكتفى بقول ناظر نظر فيـه لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه لا جملة ولا تفصيلا ؟ كلا ! إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته ، لا فرق بين عالم وجاهل » .

ويقول فى هذه المقدمة أيضاً :

« ومن الممكن أن يتناول كل واحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر ؛ فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا ، وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذى نحن عليه » .

ويشتد الأستاذ في الرد على من يريدون الحجر على العقول أن تنظر في القرآن ، لتستقي منه دينها ، قائلاً في تفسير الفاتحة :

« ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر : لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن ؛ لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام منها ، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها . وهكذا زعم بعضهم . ولو صح هذا الزعم لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سُدى . وهو على ما فيه من تعظيم شأن الفقه مخالف لإجماع الأمة من النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى آخر واحد من المؤمنين . ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم ؟ » .

يعترف الأستاذ بأن الكلام في التفسير أصبح غير سهل ، ولكنه يقرر أن نزول الكتاب هدى ونوراً لا يتحقق إلا بفهمه والاهتداء بهديه . وهذا قوله في تفسير سورة الفاتحة :

« التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل ، وربما كان من أصعب الأمور . وما كلُّ ما صعب يترك . ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه ووجوه الصعوبة كثيرة .

ولكن الله تعالى خفّف علينا بأن أمرنا بالفهم والتعقل للكلام ؛ لأنه إنما أنزل الكتاب نوراً وهدى ، مبيناً للناس شرائعه وأحكامه . ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه » .

أما وجهة الشيخ محمد عبده فى ما تناوله من تفسير القرآن فقد بيّنها فى مقدمة التفسير :

« والتفسير الذى نطلبه هو فهم القرآن من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ؛ فإن هـذا هو المقصد الأعلى منه ، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله » .

وجهة الطرافة فى تفسير القرآن هى حسن الطريقة فى البحث ، ولطف التصوير لمعانى القرآن على ما يوافق ذوق هذه العصور وإدراكها وحاجاتها . والشيخ فى كلا الأمرين متأثر بمناهج الفكر الحديث . ونسوق لذلك أمثلة بالمقدار الذى يتسع له المقام ، نجعلها على قسمين :

١ — ما هو طريف بأسلوبه فى البحث

٢ — ما هو طريف بمنازعه فى الفهم

ونأتى بهما مرتبين هذا الترتيب ونجعلهما فى ختام بحثنا فيما أخذنا أنفسنا به من معالجة هذا الموضوع .

— ٥ —

الأستاذ الإمام طريف فى طريقته فى التفسير . وهو طريف بأسلوبه فى البحث ، وبمنازعه فى الفهم . وإليك أمثلة من ذلك :

١ — أمثلة ما هو طريف بأسلوبه فى البحث .

قال الأستاذ فى تفسير سورة العصر ، عند قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ :

« التواصى أن يوصى كل من الشخصين صاحبه بشىء ، والحق ما يقابل الباطل ، وهو يكاد يكون معروف المعنى عند كل الناس ، وإنما يخطىء أغلبهم فى حمل هذا المعنى على جزئياته ، فيأتى الواحد منهم إلى أشد الباطل بطلاناً ويقول إنه الحق ، فلو حمل الحق هٰهنا على ما يراه الموصى حقاً لكان المعنى : وأوصى كل منهم صاحبه بما يعتقده حقاً وطالبه بالأخذ به ، وربما كان الآخر لا يعتقد أن الحق مع موصيه فيكون التواصى ضرباً من التنازع ؛ لأن كلاً يدعو الآخر إلى مالا يرضاه ، وهو النزاع بعينه . فلا يصح حمل المعنى عليه . وإنما الذى يصح أن يقصد هو أن يوصى كل واحد صاحبه بتحرى الحق فى ما يعتقد ، بأن ينبهه إلى الحرص على البحث فى الأدلة ، والتلطف فى النظر للوقوف على الحق الذى هو الواقع لا يُختلف فيه بعد معرفة وجهه » .

وفى تفسير جزء عم عند الكلام فى تفسير قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ من سورة المطففين ما يأتى :

« وقد رأيت فى بعض كتب أهل البحث فى اللغات أن الوحل يسمّى فى اللغة الايثيوبية (سنجون) بالجيم العجمية مع إمالة فى حركة الواو ، ولا

يخفى ما فى معنى الوحل من التسفّل . وقد يكون هذا اللفظ من استعمال عرب اليمن ؛ فإن فيها كثيراً من الألفاظ الاثيوبية لكثرة المخالطة بينهم و بين أهل الحبشة، استعملوه فيما يقارب الوحل، فلا يبعد أن يقال إن الكتاب فيه أى أنه مكتوب به ، أو على التصوير والتمثيل . أى أن الأعمال لخبثها تصور وتمثل كأنها مكتوبة ، ويكون معنى كون الوحل وما يقارب به كتاباً مرقوماً أن الأعمال بعد أن خطت به صار ذلك المداد القبيح كتاباً مرقوماً » .

وفى تفسير السورة نفسها عند قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ :

وقد رأيت عن بعض الباحثين فى اللغات الشرقية أن لفظ عَلَوَا فى اللغة الاثيوبية (الحبشية القديمة) معناه النقش باللون الأحمر . فإن لم يكن العليون من العلو فمن الجائز أن اللفظ دخل فى لغة اليمن وعرب الجنوب على معنى الزينة ، ثم أطلق على كل مزين لطيف . وقد يدل على ذلك تخالف البناء والوزن على ما هو من معنى العلو » .

٢ — أمثلة ما هو طريف بمنازعه فى الفهم :

يقول الشيخ فى تفسير جزء عم عند تفسيره لآية : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ فى سورة « الشمس » :

« السماء اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك

لفظ السماء هذا الكون ، الذى فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مجاريها ، وتتحرك فى مداراتها . هذا هو السماء ، وقد بناه الله أى رفعه وجعل كل كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيطك ، وشدّ هذه الكواكب بعضها إلى بعض بر باط الجاذبية العامة ، كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به » .

ويقول فى تفسير سورة « الفيل » :

« وقد بيّنت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرىّ أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسم دخل فى مسامه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر

وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها . وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها »

وفى تفسير سورة « الماعون » :

« والحض على طعام المسكين : الحث عليه ودعوة الناس إليه ، والذى لا يحض على إطعام المساكين لا يطعمهـم فى العادة . فقوله : ولا يحض على طعام المسكين كناية عن الذى لا يجود بشىء من ملله على الفـقير المحتـاج إلى القوت ، الذى لا يستطيع له كسباً ، وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه ، بل هذا هو الملحف الذى يجوز الإعراض عنه وتأديبه بمنعه ما يطلب . وإنما جاء بالـكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه ، وفيه حثٌّ للمصدّقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المـال من غيرهم ، وهى طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت فى الـكتاب ... »

وجاء فى سورة الناس:

« فالموسوسون قسمان : قسم الجِنَّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وإنما نجد فى أنفسنا أثراً يُنسَب إليهم . ولـكل واحد من الناس شيطان ، وهى قوة نازعة إلى الشر تحدث منها فى نفسه خواطرُ السوء . وإنما جعل الوسواس فى الصدور على ما عهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم . وكثيراً ما يقال إن الشك يحوك فى صدره ، وما الشك إلاّ فى نفسه وعقله . وأفاعيل العقل فى المخ ، وإن كان يظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه »

***

هذه وجهة الأستاذ الإمام فى دعوة الإصلاح الدينى التى نهض بها مخلصاً جريئاً ولقى فى سبيلها مالقى . وهى دعوه سامية بما قامت عليه من المبادئ ، سامية بما ترمى إليه من الأغراض الشريفة ، سامية أيضاً بما تحمَّل الأستاذ من أجلها من الآلام .

ونناجى أستاذنا فى ختام القول بما ناجاه به صديقه المرحوم إسماعيل صبرى باشا :

ألا نَمْ مع الأبرار فى الخُلد ناعماً فكم بتَّ فينا ساهرَ العزمِ عانيا

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

١ — عمرو بن العاص للأستاذ عباس محمود العقاد صدر في مارس سنة ٤٤

٢ — منصور الأندلس « علي أدهم « « ابريل «

٣ — بشار بن برد « ابراهيم عبد القادر المازني « « مايو «

٤ — المعز لدين الله « ابراهيم جلال بك « « يونيه «

٥ — محمد عبده للدكتور عثمان أمين « « يوليه «

٦ — أبو نواس للأستاذ عبد الرحمن صدقي « « أغسطس «

٧ — مهدي الله « توفيق احمد البكري « « سبتمبر «

٨ — محمد علي الكبير « شفيق غربال بك « « أكتوبر «

٩ — الفارابي للأستاذ عباس محمود « « نوفمبر «

١٠ — قاسم أمين « أحمد خاكي « « يناير سنة ١٩٤٥

١١ — ابن رشد الفيلسوف للأستاذ محمد يوسف موسى « « فبراير «

١٢ — الإمام الشافعي لمعالي مصطفى عبد الرازق باشا « « ابريل «

الكتاب الثالث عشر

يظهر في الشهر التالي